روايات رومانسية عالمية

عبير

فراشة المحبة

آن ميثر

نداء الدم

مكتبة جرير
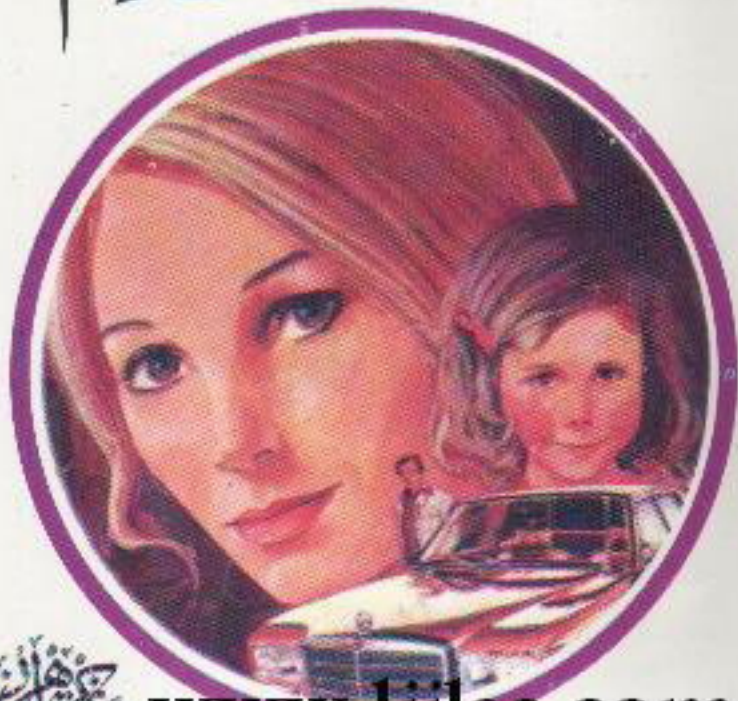
فراشة المحبة

نداء الدم

هل يعرف الأبن أمه ولو لم يشاهدها منذ ولادته؟ وهل تحن عروق البنت الى والدها ولو انه هجر امها قبل ان ترى النور ؟

سؤال تجيب عنه هذه الرواية في سياق لا مثيل له تجلت خلاله صراحة الاطفال وتعقيدات الكبار .

لقد اخطأت راشيل مرة في حياتها . ومن لا يخطىء لا يكون بشراً ، الآ انها حملت توبتها وراحت تحاول الابتعاد عن اجواء... تلك الليلة . لكن القدر رفض ان يتركها طليقة بعيدة عن جويل كينغدوم . ارادت ان تتزوج والده الثري الكبير بهدف حماية ابنتها سارة فلم يتركها تفعل ووقف في وجهها وقوف الصخر بوجه الامواج . لكن ماذا يريد هذا الرسام البوهيمي الذي يكره الزواج والاطفال ؟ وهل يأخذ منها كل شيء بعدما اذلها سنوات طويلة ؟

مكتبة زهران
١٥ ش الشيخ محمد عبده
خلف الجامع الأزهر
ت : ٠١٢٢٣٧٨٦٤١٨

١- ليلة "الديك الذهبي"

انحرف جويل بسيارته عن الطريق الرئيسي عند مفرق سالتون، واتجه صوب الغرب. الأراضي تمتد أميالا تكسوها شجيرات الوزال الشوكية بخضرتها الدائمة وزهورها الصفراء، تنتثر بينها بعض الاكواخ، يتصاعد الدخان من مداخنها ليكون العلامة الوحيدة التي تنبىء عن وجد حياة.

أخذ المساء يظلل أشعة الشمس المائلة ومزيج ألوان الضوء يبدو رائعا، ومع ذلك فان جويل -بحاسته الفنية- لم ينتبه لجمال المنظر، اذ كان مشغول الخاطر تماما ... ولم تكد الشمس تغرب حتى بدا الأفق بلونه الشفيف، وبدت النجوم من خلاله كأنها ترتعد.

كانت السيارات المقبلة من الاتجاه المعاكس تضطر الى أن تتخلى عن موقعها في وسط الطريق لسيارته المرسيدس. ولم يكن جويل في حالة نفسية تسمح له بأن يتنازل ولو بعض الشيء ... كانت معدته تذكره بانه لم يأكل شيئا منذ الصباح، وكان يحس بالظمأ.

نظر الى الساعة الذهبية في معصمه، وكانت قد تخطت السابعة مساء، وأحس بالظلام يرخي سدوله ولم يكن راغبا في القيادة على ذلك الطريق خلال الليل. وبدأ يدرك أنه أمسى على بعد خمسة أو ستة أميال فقط من لانفتويت. وربما يكون سعيد الحظ فيجد في الفندق كل ما يريده حتى صباح اليوم التالي.

كانت القرية صغيرة، تقوم حول ميدان مستدير، صندوق الهاتف يقبع خارج مكتب البريد قرب المتجر، وأخيرا الحانة التي تحمل اسم "الديك الذهبي". وكان كل ما يطمع فيه مكانا نظيفا للنوم، وشرابا باردا ينعشه.

وكان شاب أو شابان يتسكعان في الساحة، أثار فيهما منظر السيارة المرسيدس بعض التعليقات الفظة واضطر جويل أن يترك السيارة خارج الحانة داعيا الله ألا يعبث

أحد بمسامير صدئة في طلائها وسأل نفسه: أين ذهب السحر الريفي القديم الذي كان يحلم به؟

وترك جويل حقيبته في صندوق السيارة، وارتدى سترته الصوفية وأحكم رباط العنق وهو يجتاز المدخل المؤدي الى الحانة ولم يكن فيها سوى شخص أو شخصين من الزبائن المسنين. الفتاة التي تقوم على الخدمة في مقتبل العمر، شقراء مفعمة بالصحة، بدأت تعير اهتمامها للوافد الغريب ذي البشرة السمراء، وغمرته بنظرة دافئة مشجعة، وقالت له:

"حسنا، يا سيدي، بم تأمر؟"

واخرج جويل حافظة نقوده من جيبه الداخلي ثم قال:

"أوه، أي شيء بارد من فضلك."

ونظر حوله، ثم سأل:

"أعتقد أنكم تستقبلون النزلاء للمبيت؟"

وملأت له الكأس، وناولته إياها، واتسعت عيناها، ونظرت اليه بشيء من الفضول، واستوضحته:

"نزلاء للمبيت، يا سيدي؟ أعتقد أن السيد هاريس يمكن أن يستقبل زائرا أو زائرين، وان كنت غير متأكدة."

وناولته المبلغ المتبقي له والتقت عيناهما، وهي تقول:

"اتحب أن أسأل لك عن المبيت، يا سيدي؟"

ووضع جويل باقي النقود في جيبه، وقال:

"اذا سمحت!"

عند ذلك نظرت اليه الفتاة، واستدارت وهي تهز كتفيها وانصرفت.

أراح جويل جسمه على كرسي مستدير من كراسي الحانة، كان الشراب باردا لذيذا ومنشطا، كما أراده بعد تلك الساعات الطويلة في قيادة السيارة، وخطر له أن لانغثويت لم تكن عادة تستقبل غير زائرين قلائل في مثل ذلك الوقت من السنة.

ظهرت الفتاة ومعها رجل في أواسط العمر بدا أنه صاحب الحانة، واصطنع جويل ابتسامة اعتقد أن الرجل بادله مثلها، واستند هاريس بذراعه وهو يسأل:

"سمعت أنك تريد مكانا للمبيت، هل تطول إقامتك؟"

وأجاب جويل في هدوء:

"ربما لليلة واحدة فقط!"

واستفسر الرجل الأكبر سنا:

"فأنت مسافر على الطريق إذن، يا سيدي؟"

وهز جويل رأسه، ثم أذعن لفضول السائل، فقال:

"إنني في مهمة في لانغثويت."

وأجاب السيد هاريس:

"حسنا، هناك غرفة، وزوجتي تعدها لك الآن، هل نقدم لك الطعام أيضا؟"

كان جويل بالفعل يقاسي من الجوع، وأجاب في هدوء يستحوذ على الاعجاب:

"اذا كان ذلك ممكنا، وتكفيني لهذا المساء بعض الشطائر، وربما يكفي بعض الخبز المحمص للافطار."

عند ذاك ظهرت سيدة ظن جويل أنها السيدة هاريس، وتحدثت مستفسرة:

"هل هذا هو السيد الذي يريد أن يقضي الليل هنا؟"

وأومأ زوجها بالايجاب، فأضافت:

"حسنا، يا سيدي! غرفتك حاضرة وأظن أنك جائع؟"

نظر جويل الى السيدة هاريس وأجاب:

"أنا، حسنا..."

وأومأ بالموافقة، وعلق زوجها:

"نعم يا الي... ان السيد (والتفت اليه مستفسرا) لم أعرف بعد اسمك يا سيدي.. (ثم أكمل الحديث لزوجته) انه يريد الطعام..."

ورد جويل فورا:

"اسمي كنغدوم، جويل كنغدوم... من لندن."

وصعد الى غرفته في الطابق الاول، وتناول العشاء في غرفة صغيرة تستخدمها الاسرة عادة. وجاءت السيدة هاريس لتقوم بنفسها على خدمته، ولم يكن ذلك ليحرمه من الشقراء التي قدمت له الشراب في الحانة، كانت تلتمس العذر لتدخل فجأة وتخرج بعد أن تسأله اذا كان يلزمه أي شيء، كان فمه يبدو عنيدا ساخرا بعدما أتى على الوجبة التي قدمتها له السيدة هاريس التي دخلت وبدا عليها شعور بالارتياح عندما وجدت الصحن خاليا فقالت:

"أرجو أن يكون الطعام أعجبك يا سيدي."

وأومأ جويل برأسه علامة الموافقة، وقال:

"كان لذيذا للغاية... شكرا يا سيدة هاريس... وابتسمت

وكان وجهها ينم عن سرورها، وقالت وهي تجمع الصحون:
"سوف تقيم معنا الى الغد فقط؟"
ونهض جويل، وهو يقول:
"آمل ذلك ... أعني بالطبع أن العمل الذي قدمت له ربما لا يأخذ وقتا أطول من ذلك (تنهد)، ثم أضاف:
"ينبغي أن أعود الى لندن."
قالت مستفسرة:
"اذا ... فأنت تعمل في لندن، يا سيد كنغدوم .."
وأجاب جويل بطريقة تنم عن عدم الرغبة في اعطاء اجابة شافية:
"أحيانا."
وسألت:
"ولكنك تسكن هنا؟"
وأجاب:
"يمكنك أن تقولي ذلك."
كانت السيدة هاريس كما يبدو تحاول العثور على مدخل للتعرف على مهمته. وكان هو من جانبه يحاول التهرب من الاجابة على مثل هذا السؤال، وقال:
"اذا أذنت، سأصعد الى غرفتي الآن ... كان يوما مضنيا، وأشعر بشيء من التعب."
وحاولت السيدة هاريس أن تخفي شعورها بالاحباط، وأجابت:
"طبعا، يا سيدي، انك تعرف المكان."
وابتسم جويل وقال:
"طبعا! تصبحين على خير!"
وظهر عليها الرضا الكامل لطريقته المهذبة في الحديث، وأجابت مبتسمة:
"وأنت بخير يا سيدي."
وسلك جويل طريقه عبر الردهة الى الدرج، وظهرت الفتاة الشقراء عند المدخل تقول بشيء من الحياء:
"ألا تأتي لتأخذ شرابا الآن؟"
وهز رأسه وهو يقول:
"لا، أشكرك!"
وردت في الحال:

"غير معقول ... هل تنام الآن؟"
وأجاب:
"ولم لا؟ أليست الساعة بعد العاشرة؟"
وردت عليه باستغراب:
"يا للغرابة! العاشرة! كنت أظن أن سكان لندن يسهرون الى ساعة متأخرة من الليل! ماذا حدث لسنوات السبعينات الراقصة المرحة؟"
وأجاب بجفاف:
"أعتقد أنها شنقت نفسها .. أسعدت مساء!"
كان الفراش باردا كالثلج، ولكن حرارة الافكار التي كانت تعتمل بداخله ساعدته على احتمال الموقف. اضطجع جويل على ظهره، وأسند رأسه على ذراعيه، وبدأ يحدق بعبوس في ظلال الأزهار البارزة على الستائر المصنوعة من "الكريتون". أخيرا، إنه هنا في لانغتويت، وفي بقعة ما بالخارج ... ربما على مسافة ميل ... توجد راشيل ... راشيل غيلمور كما تسمي نفسها الآن ...
وأحس بمذاق الصفراء الكريه في مؤخرة حلقه: راشيل تظن أنها تستطيع أن تفعل ذلك ... به هو! وتكورت يداه بشدة، وانضغطت كل منهما في قبضة قوية، لو تمكن منها هنا ... والآن، لاعتصر عنقها بيديه!
ولكن الانفعال كان ضياعا ... انه يعرف أن الهدوء والموضوعية لهما فعل أوقع، ولكن لم يكن بوسعه أن يتأكد تماما أنها فعلت ذلك للنكاية به، ومع ذلك فأية محاولة لتبرير سلوكها لم تكن شيئا مستساغا.
كان يعمل في وضع اللمسات الاخيرة للوحة السيدة أنطونيا باري عندما جاء فرنسيس يدق بابه، كان قد استيقظ في ذلك اليوم مبكرا عن عمد ليستفيد بالضوء، وصار فرنسيس أخوه غير الشقيق، يحكي القصة التي جاء بها الى جويل في تلعثم حتى أكملها، ولكن جويل لم يأخذ القصة على أنها ورطة مالية جاء يطلب فيها العون المالي من أخيه، وقال جويل بشيء من القلق:
"ولكنني لا أفهم لماذا تظن أن تفكير أبي في الزواج يمكن أن يسبب لي الضيق."
عندئذ أخذ فرنسيس يذرع بخطواته المرسم، وهو يردد:

"بالطبع، لا يهمك ... تركت لك جدتك ثروة كبيرة ... أما أنا فليس لي أقارب أثرياء من طرف أمي، واذا تزوج أبي مرة أخرى، فالمنتظر أن يحرمني من الميراث كما حرمك!"

كان جويل قد أخذ يدفع شعره الى الخلف بيدين مضطربتين، وعلق قائلا:

"لكنك لم تكترث عندما حدث ذلك، (وأضاف) كان الامر يختلف في حالتي وأنت تعلم ذلك، كان أبي يعلم أنني لست بحاجة الى ثروته، وكما تقول أنت فان جدتي هونت من دور أبي في رسم مستقبلي. أما بالنسبة اليك فالامر مختلف، انك ابنه، وحتى لو تزوج، فان الامل في أن ينجب أطفالا ضعيف! ألا ترى أنه في الثالثة والستين من عمره؟"

وأجاب فرنسيس:

"الا تعلم أن بإمكان الرجل أحيانا أن ينجب حتى لو كان في التسعين من عمره، ومع ذلك فانك لم تسمع القصة كاملة بعد، انك لم تسأل: من تكون المرأة التي ينوي أن يتزوج بها؟"

وهز جويل كتفيه بشيء من عدم الاكتراث، وهو يقول:

"ان ذلك أمر لا يهم."

واستأنف فرنسيس الحديث، وهو يتلذذ بوقع كلامه على أخيه:

"ربما يهم، اسمها غيلمور ... راشيل غيلمور ... وكان اسمها من قبل راشيل آبي."

عند ذاك فقط حدث ما لم يكن متوقعا، فقد انطلق جويل بخطوات غريبة وفعل ما لم يكن منتظرا بالمرة اذ أمسك بأخيه غير الشقيق من قميصه، وجذبه تجاهه بعنف، وهو يقول:

"ماذا تقول؟"

وقع فرنسيس في شيء من الاضطراب، وأخذ يخلص نفسه، وهو يقول:

"هذه ... هي ... ال... حقيقة... الحقيقة يا جويل... انها، را.. راشيل... راشيل!"

دفعه جويل بعنف جعله يدور حول نفسه، ويستقر في النهاية على الارض، وكان وجهه ممتقعا من الغضب عندما نهض على قدميه، وأخذ ينفض التراب عن ثيابه، وهو يحدق في أخيه بخبث:

"إنها ليست غلطتي... فقط لأنك لا تحب الحقيقة...

عندما تسمعها."

لم يعد جويل يسمع. عرف أن ما قاله فرنسيس صحيح. وهو لم يكن ليأتي اليه بقصة مثل تلك ان لم يكن لديه البرهان على صدقها، وأخذ يبحث عن سيكار، وضعه في فمه ثم أشعله بيدين تفتقدان الاتزان، وصار يحملق باكتئاب خارج النافذة، كان يطل على شاطىء نهر التيمز عبر السطوح. وعندما أحس أنه استعاد بعض توازنه استدار تجاه فرنسيس الذي أشعل سيكارا، وأخذ ينفث دخانه بعصبية عندما بادره جويل بقوله:

"أخبرني بما تعرفه."

وتململ فرنسيس وأجاب في دمدمة:

"لا أعرف."

وتصلب فك جويل وهو يقول:

"لا تحاول أن تخدعني، قل لي كيف عرفت أنها راشيل."

وأجاب فرنسيس:

"رأيتها."

"ماذا تعني؟"

"رأيتها، أوه، بالله يا جويل! كف عن النظر الي هكذا! انها ليست غلطتي، في الليلة الماضية ... مع أبي! حقا."

ونطق بالعبارة الاخيرة عندما ألقى جويل بسيكاره الى الارض، وسحقه بنعل حذائه.

"أين؟"

"في بيروكيوس يتعشيان .. رأيتهما .. أؤكد لك."

كان جويل يحرك رأسه من جانب الى آخر تعبيرا عن الشك، وقال:

"ابدأ من البداية!"

أخذ فرنسيس يدخن سيكاره بشدة، وهو يقول:

"حسنا! عرفت منذ وقت، أن هناك امرأة. أوه، نعم، منذ ... منذ أن رحلت أمي .. كنت أستطيع أن أعرف ذلك."

"أرجوك ... ادخل مباشرة في الموضوع."

"منذ أسبوع، أخبرني أبي أن هناك شخصا ما."

"ولكنك لم تخبرني بذلك من قبل!"

"ليس فورا، لا! (قال فرنسيس ذلك مدافعا عن نفسه) كما ذكرت في كلامك يا جويل، ان عمره ثلاثة وستون عاما، وكنت أظن، أن أي امرأة لا يمكن أن تقبل بـه إلا اذا كانـت فـي

مثل سنه! وأنت تعترف كذلك أن أمي وأمك كانتا قريبتين منه في العمر.

"حسنا ... استمر!

"الذي حدث هو أنني لم أسأل كثيرا، ولقد أخبرني، وكان الأجدر به أن يضحك كثيرا عندما أخبرني ... ان اسمها السيدة غيلمور ... السيدة راشيل غيلمور. وأنت تعرف أن اسم راشيل ليس اسما مألوفا".

وسأل جويل:

"هل هذا هو كل شيء؟"

وأجاب فرنسيس:

"لا! قال انها قادمة من يوركشير، وأنها تعمل في قرية تسمى لانغثويت كمديرة منزل في بيت كولونيل متقاعد".

وأخذ جويل يكرر الكلمات نفسها:

"مديرة منزل في بيت كولونيل متقاعد!"

"نعم، هذا ما قاله لي".

"ربما تكوت أخطأت".

"أؤكد لك انني رأيتها".

"لا أقصد ذلك. انما أقصد العمل الذي تشتغل به، أنت تعرف يا فرنسيس أن راشيل كانت تدرس في الجامعة عندما .."

وأكمل فرنسيس الجملة:

"عندما هجرتك ... أليس كذلك؟ ولكن كيف تعلم اذا كانت أكملت دراستها أم لا؟ كان ذلك منذ ست سنوات ... وتزوجت وأنجبت طفلا".

وشحب وجه جويل الاسمر، وهو ينطق:

"طفل! هل أخبرك أبي بهذه القصة كذلك؟"

وأطفأ فرنسيس سيكاره ونظر الى أعلى وهو يقول:

"نعم، ذلك قد يفسر لماذا تعمل كمديرة منزل. أقصد أنه ليس من السهل أن تجد المرأة عملا اذا كان لديها أطفال".

وضاقت عينا جويل تحت رموشه الكثيفة، وهو يسأل:

"وماذا عن زوجها؟"

وهز فرنسيس كتفيه، وقال:

"كيف لي أن أعرف؟ ربما يكون قد توفي. قال أبي إنها أرملة!"

وخطا جويل عبر الغرفة، وهو يقول:

"أرملة ... لا أكاد أصدق ذلك، هل أنت متأكد أن هذا كله لم يكن الا خدعة ماكرة لتحقيق نزواته؟"

"ماذا تعني؟"

وهز جويل رأسه، وأجاب:

"لا أعرف، كان أبي يكرهني لأنني كنت أعارضه".

"لا أعتقد أن أباك كان يكرهك، يا جويل!"

"بل أعتقد أن رغبته في الزواج من راشيل لهذا السبب بالذات".

"إنك مجنون!"

"هل تعتقد ذلك؟"

كانت ملامح جويل، وهو يتكلم مشبعة بالحقد، وأضاف:

"هل هذا هو كل شيء؟"

وأجاب فرنسيس:

"ما الذي تريد أن تسمعه مني ... بعد ذلك؟"

"ما الذي قاله أبي عندما أخبرك؟"

"أخبرتك بكل ما أعرف".

"لكنك لم تخبرني، كيف رأيتهما معا في الليلة الماضية؟"

تنهد فرنسيس، وقال:

"كان ذلك مصادفة، وأبي لا يعرف أنني رأيتهما".

"وماذا بعد؟"

"كنت ذاهبا الى فريديز. وكنت بحاجة الى المال".

"كالعادة ..."

"تذكرت بيري سيمونز فجأة".

كان بيري سيمونز صاحب مطعم، بيروكيوس، وكان جويل يعرف ذلك أيضا.

"ذهبت الى هناك لأني كنت أنوي اقتراض مبلغ من المال. وهناك رأيتهما".

"وتركت المكان؟"

"نعم!"

"كم كان الوقت عندئذ؟"

هنا نظر فرنسيس الى ساعته، وقال:

"حوالي الحادية عشرة".

"ولكن الساعة الآن الثامنة والنصف! اذن ماذا كنت تفعل خلال تسع ساعات ونصف الساعة؟"

هز فرنسيس رأسه، وقال:
"لم أكن أعرف ماذا أعمل؟ ولم اكن أعرف هل أخبرك بما حدث أم لا؟"
"ولم لا؟"
وهز فرنسيس رأسه وقال:
"لقد ... سرت ... أميالا ... ووصلت الى شقتي حوالي الرابعة وكان بوسعي أن أطلبك في الهاتف عندئذ، ولكنني ظننتك مشغولا."

لم يكن ما يقصده فرنسيس يخاف على جويل، وكانت شفتاه ترتعدان، وألقى نظرة أخيرة الى اللوحة الخاصة بالسيدة أنطونيا، ثم سار عبر المرسم الى الباب المؤدي الى الجزء الاساسي من الشقة، وقال بصوت متثاقل:
"حسنا، ساصنع بعض القهوة، أعطيت هيرون إجازة الليلة؛ وعلى ذلك فانه لن يعود الا متأخرا، ويمكننا أن تواصل حديثنا في المطبخ ان شئت."

عرف جويل فيما بعد أن راشيل عادت الى يوركشير ووجد أن أباه لم يكن ممانعا في الحديث عن السيدة غيلمور عندما اكتشف أن ابنه الاصغر أخبر جويل بالخطط التي كان ينوي السير فيها. واضطر جويل أن يمسك لسانه وأن يسيطر على قبضتي يديه عندما وقف أمام أبيه بوجهه الذي يعبر عن الاعتداد بالنفس، ولو كانت هناك بقية من شك في صدق ما قاله فرنسيس لزال هذا الشك تماما أثناء المقابلة التي تمت بينه وبين أبيه. كان جيمس كنفدوم راضيا تماما عن نفسه. ووجد جويل أن غضبه تركز على راشيل بعنف يكاد يصل الى الرغبة في تدميرها، كيف تجرؤ على ذلك؟ كان يسأل نفسه هذا السؤال مرارا وتكرارا، كيف تجرؤ على أن تفعل هذا به؟ لا بد أنها كانت تكرهه الآن كما يكرهها وتحقد عليه بالدرجة نفسها من الحقد الذي بدأ يشتعل في نفسه ازاءها.

ورغم ذلك لم يكن ليسمح بسهولة بأن يحدث ما كان وشيك الحدوث. وجد نفسه يدافع باستماتة عن حقوق فرنسيس، ولم يكن ليصرح بدوافعه الحقيقية التي لم تكن تقل أنانية، لو أن راشيل كانت قد تزوجت بالفعل، وأنجبت طفلا، فهي تكون بذلك قد أثبتت خصوبتها، وأبوه كان لا يزال قوي الصحة مكتمل الرجولة، كانت زوجتان تكفيـان أي رجل في رأيه

ناسيا أنه لو لم تمت أمه عقب ولادته مباشرة لما فكر أبوه في الزواج من أخرى.

كان قد مضى على ذلك ثلاثة أيام تمكن فرنسيس خلالها من اكتشاف اسم مخدوم راشيل هو الكولونيل فرنشاو. وعرف أن هذا الكولونيل يعيش في مبنى الأولد هول في لانغتويت واعتقد جويل أن الوصول الى ذلك المكان لن يكون بالأمر العسير.

وحاول في الحاح أن يستجمع في مخيلته صورة الفتاة التي قرر أن يقترن بها ذات يوم. وكانت السنوات الست التي مضت قد وضعت نقابا مشوشا على ملامح راشيل، كان يستطيع أن يتذكر بعض التفاصيل حول راشيل. ولكن من الصعب عليه أن يصيغ تلك التفاصيل في منظور صحيح.

ست سنوات، كانت بمعيار الزمن، فترة طويلة، كيف تبدو الآن وهي في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها، لا بد أنها تستطيع أن تتذكر، كانت أصغر منه بعشر سنوات، ولكنها كانت تسيطر عليه، وهي ما زالت بعد صغيرة في تلك السن، لم يكن لامرأة قبلها أو بعدها شيء من تلك السطوة على شخصه، ومضى في هواجسه، عندما يقابلها في الغد سوف يجعلها تعلم أنها قضمت بأسنانها أكثر مما يستطيع فمها أن يمضغه عندما قبلت أن تقف منه موقف التحدي، كيف تجرؤ على أن تتخيل أنها يمكن أن تصبح عضوا في أسرته بدون أن تثير ردود فعل منه؟ واستولت عليه الفكرة، وألحت عليه... ولم تتركه الا بعدما جمدت أطرافه من نوبة الغضب...

٢- عمر سارة

وفي الصباح التالي كان من اليسير عليه أن يسأل السيدة هاريس عن موقع الأولد هول، ورفعت السيدة هاريس حاجبيها وهي تقول:
"تقصد منزل الكولونيل فرنشاو؟ هل أنت صديق له يا سيد كنغدوم؟"
وأجابها وهو يزدرد الليمونة الهندية التي أمامه:
"ليس بالضبط، أعرف شخصا هناك... يعمل لديه..."
"لا بد أنه السيد هانسون.. هل هو ذاك يا سيدي؟"
وهز رأسه الى أعلى وقطب وجهه، وأجاب:
"هانسون، لا! لا أعرف أحدا بهذا الاسم."
وزمت السيدة هاريس شفتيها، وهي تقول:
"لا تعرف، ان السيد هانسون هو سكرتير الكولونيل فرنشاو، إنه شاب مثقف، ويأتي الى هنا أحيانا في عطلة الاسبوع."
وازداد وجه جويل تقطيبا، وعلق في تردد:
"حقا؟ لا! إن الشخص الذي أعرفه هو - في ظني - مديرة منزل الكولونيل."
وانفرجت أسارير وجه السيدة هاريس وصاحت:
"السيدة غيلمور؟"
وركز بصره على الليمونة الهندية، وقال:
"صحيح."
ورفعت السيدة هاريس حاجبيها، وقالت:
"لا أعرف عن السيدة الشابة أكثر من التحية التي نتبادلها أحيانا."
كان جويل يفكر بسرعة، وعلق على إجابتها:
"ولكن، هل يوجد آخرون يعملون هناك، أعني في الأولد هول؟"
"على حد علمي، لا! هناك فقط الكولونيل فرنشاو السيد هانسون، والسيدة غيلمور بالطبع، أوه والصغيرة سارة."

وشعر جويل بوخز في أعصابه، فسألها:
"أهي ابنة السيدة غيلمور؟"
"نعم... وأنت تعرف ذلك؟"
لم يجب جويل بشيء... إذا فالطفل أنثى واسمها سارة. ووجد نفسه يلح على السيدة هاريس ليجرها الى الكلام:
"كنت تنوين أن تخبريني كيف أجد الأولد هول؟"
وأومأت بالموافقة، ورفعت من أمامه صحن الليمونة الهندية، ووضعت بدلا منه صحنا آخر فيه قطعة من اللحم، وشيئا من البيض والسجق والطماطم. كان ذلك الطعام في العادة يثير شهية جويل، ولكنه بعد الليلة القلقة التي قضاها كان يحس بالغثيان، ومع ذلك أرغم نفسه على الطعام وبدأ باللحم:
"لو أنك تتبعت طريق كراغستون لمسافة ميل فسوف تجده على يسارك. إنه البيت الوحيد لأميال عديدة."
"أشكرك."
وسكب جويل لنفسه بعض القهوة، كانت الساعة تشير الى الثامنة والنصف. وخطر له أن التاسعة قد تكون وقتا مبكرا لا يسمح بالزيارة. فكر في الاتصال بالهاتف، ولكنه كان يريد أن يرى الانطباع الذي يرتسم على وجه راشيل عندما تراه، وكان يريد أن يستشعر نشوة الزهو التي تتملكه عندما يواجهها بنظرات الاحتقار.
كان الصباح لطيفا في ذلك الوقت الباكر من شهر مارس / آذار، وقرر أن يلبس سترة تنسجم مع سرواله الأزرق الغامق، وأخذ يدفع ذراعيه في أكمام السترة بينما عيناه تتفحصان ساحة القرية، تحت أشعة الشمس الساطعة، ووقعت عيناه على زهور النرجس البرية وعلى أزهار بيضاء وصفراء تنمو في كل شبر من الأرض أما المباني فكانت تبدو نظيفة معتنى بها.
لم يكن العثور على طريق كراغستون أمرا صعبا بعد إرشادات السيدة هاريس ووصل الى مبنى الاولد هول. كان الدخان يتصاعد بشدة من المداخن، دليلا على أن بعض سكان المنزل استيقظوا، وكانت هناك حافلة صغيرة قديمة تنتظر في الساحة الامامية، وبوابات صدئة من الحديد انفرجت تاركة المدخل مفتوحا على مصراعيه. وتوقف جويل بسيارته

أمام تلك البوابات مباشرة غير واثق إذا كان ينبغي عليه أن يترك السيارة في ذلك المكان أم لا؟ ولكنه عندئذ أرخى الكابح وولج بسيارته بين أعمدة البوابة، واندفع فوق الممر المفروش بالحصباء ووقف الى جوار الحافلة الصغيرة.

وترجل من السيارة، ووقف لحظة ينظر الى النوافذ المطفأة. إذاً، هذا هو المكان الذي تعيش فيه. منذ متى؟ السنتان الاخيرتان أم السنوات الثلاث الأخيرة؟ ودفع كتفيه الى الخلف وواصل حديثه مع نفسه: منذ موت زوجها، دون شك، وغيلمور؟ من يكون؟ ماذا كان عمل ذلك الرجل الذي تزوجها لتلك الفترة القصيرة؟ ولماذا تزوجته؟ هل أحبته؟ لو كان الأمر كذلك، فلا شك أن الحب كان يعرف طريقه إليها بأسرع مما كان يعرف طريقه اليه، ومشى الى مدخل المبنى. وبدأ يشد بقوة حبل الجرس. وسمع رجع الصدى يتردد في جنبات المبنى، كان الصوت كفيلا بايقاظ الموتى.

وفتح الباب شاب نحيف يميل شعره الى الحمرة ووقف ينظر اليه في ترقب، وقال:

"نعم؟"

وشعر جويل بشيء من الاضطراب، وتعثر في الكلام لحظة ثم ملك نفسه، وقال:

"أريد أن أتحدث الى السيدة غيلمور."

ورد الشاب في الحال:

"راشيل!"

أجاب:

"نعم، راشيل!"

وبدا أن الشاب كان يضمر له عدم الود، اذ أجابه:

"إنها مشغولة الآن، تستطيع أن تأتي فيما بعد."

وتذرع جويل بالصبر، وقال:

"أرجوك أن تبلغها أن شخصا من أسرة كنغدوم يريد أن يتحدث اليها. أعتقد أنك ستجدها راغبة في الحديث الي."

ونظر اليه الشاب بشيء من البرود، وأخذ يردد:

"كنغدوم، أنت أحد أقارب جيمس كنغدوم؟"

وأجاب جويل وهو يهم بالاقتراب من عتبة الباب:

"نعم، والآن، هل تبلغ رسالتي من فضلك؟"

وهز الشاب كتفيه، واستدار ليعبر الردهة الفسيحة

في مدخل المنزل، أما جويل فأسند كتفه الى دعامة الباب. لا بد أنه هانسون الذي تحدثت عنه السيدة هاريس، كان يبدو أصغر سنا مما كان يتوقع.

وسمع من خلفه صوتا:

"هل طلبت أن تتحدث الي؟"

ودفع رأسه في استدارة الى الوراء. لم يكن قد أحس باقترابها، ومع ذلك كانت راشيل، كانت تقف عند المدخل مباشرة، واضعة يديها في جيوب مريلتها القطنية المخططة، وجهها أكثر نحافة مما عرفه، متوردا بشكل ظاهر في بعض أجزائه وشاحبا بما يشبه الموت في مواضع أخرى، وكان جسمها أكثر نحافة، ولكن شعرها الحريري الأشقر أصبح حبيسا الآن في عقدة قاسية تتدلى على مؤخرة عنقها واعتدل جويل في وقفته بعض الشيء وسمح لعينيه أن يتفحصاها بطريقة تنم عن ازدراء مقصود، وعلق بسخرية:

"شيء جميل حقا، السيدة غيلمور ماثلة أمامي؟"

"ماذا تريد مني يا جويل؟ هنا مكان عملي، وعندي من العمل ما يشغلني."

كانت أنفاسها تضطرب وهي تتحدث بسرعة، ولاحظ جويل أن هانسون يرقب من الداخل، وعندئذ نفذ صبره، وقال بقسوة:

"ينبغي أن تتخلصي من كلب الحراسة الذي يرقبنا، وتخرجي لتتحدثي الي، لست أنوي أن أسمح بهذه المناقشة تحت بصر أحد؟"

عندئذ جاء صوت من الداخل ينادي:

"راشيل!"

كان هانسون على وشك أن يتدخل، ولكنها أشارت اليه ألا يزج بنفسه في الموضوع، وتحدثت الى جويل:

"أعتقد أنك جئت تطلب تفسيرا."

"يا لك من شيطانة! هذا حق، انني فعلا أريد ذلك."

"لكن أباك وعد بألا يخبرك."

"حقا؟ انه شيء عظيم منه."

"ولكنه أخبرك بالفعل."

"لا بد أن أصحح لك، فلقد رآكما فرنسيس معا."

"أوه! يا لله!"

وحدق جويل فيها ببرود، وهو يقول:
"ان الله لن يقف بجانبك الآن ... هل تتخلصين من صديقك هذا؟ أم تتركين لي ذلك؟"
وأجابته بشيء من التردد:
"لا أستطيع أن أتحدث اليك ... الكولونيل ينتظر طعام الافطار الآن و... و..."
"راشيل! انني أحذرك ..."
ولوت يديها المتشابكتين توجعا، وهي تقول:
"حسنا، يا جويل ... حسنا ... سأتحدث اليك ... ولكن ليس الآن ... ولا هنا ... وليس بهذه الكيفية."
ونظرت الى الوراء من جديد نظرة خاطفة، ثم قالت:
"هل تأتي فيما بعد ... هذا المساء ان شئت؟"
لم يكن يعجبه أن تقف حيث كانت تتحدث عن افطار الكولونيل، ولكنه يدرك أنه لو فقد شعوره وأحدث صخبا في المكان فما كان ذلك يغني شيئا، كان يعلم كذلك أن المكان ملكية خاصة لا قبل له بالبقاء فيه دون موافقة المالك، والا كان متعديا على أرض الغير، وضبط مشاعره بصعوبة بالغة وقال:
"حسنا، بعد الظهيرة، اذا، في أي وقت بالضبط؟"
وهزت راشيل كتفيها بشيء من العصبية، وهي تقول:
"لا أدري، ربما توافقك الثانية؟ أو الثانية والنصف؟"
"إذن في الثانية، قالها جويل بشيء من العبوس دون أن ينطق بكلمة أخرى، ومشى بخطوات واسعة تجاه السيارة.
أمضى جويل الصباح عند غدير وجده على بعد أميال أخرى عن الطريق الى كراغستون، ولم يعد الى لانغثويت رغم أنه أحس بأن الاحتياجات الطبيعية لجسمه تستدعي ذلك، ورغم أنه شعر بالجوع منذ الواحدة ظهرا اكتفى بسيكار وبعلبة من الشراب كان يحتفظ بها للطوارئ.
وعند الثانية الا ربعا نهض، ونفض التراب عن ثيابه، واتجه الى السيارة. كانت السماء غائمة، والتوت شفتاه تعبيرا عن الضيق من الطقس، وقفل راجعا تجاه لانغثويت. وعندما بلغ قمة الطريق حيث كان بمقدوره أن يرى مبنى الأولدهول من عل على هيئة كتلة رمادية منبطحة. كان المطر ينزل بغزارة.

وتوقف بسيارته الى جانب الحافلة الصغيرة الرثة، وبدلا من أن يترجل ويتجه الى الباب أخذ يستخدم بوق السيارة ليعلن وصوله، كان هذا السلوك يدل على شيء من الفطرسة والتكبر، وكان على وعي بذلك، ومع هذا كان في قرارة نفسه يعلم أن راشيل لم تكن لتنزعج أو تشعر بالتهديد من سلوك تعتبره محاولة غير ناضجة، قصد بها إثارتها.
تنهد جويل ثم دفع باب السيارة، وخرج منها، وعندما ابتلت كتفاه بقطرات المطر زاد عبوسا وتقطيبا، وهرع تجاه الجزء المسقوف من مدخل المبنى، فانفتح الباب حال وصوله، وظهرت راشيل، وأخذت تصطنع شيئا من الدهشة لرؤيته عند المدخل ولكنه كان مقتنعا بأنها كانت تنتظر نزوله من السيارة قبل أن تظهر على الباب.
واحتمى بالجزء المسقوف بينما كانت هي تغلق الباب خلفها. وعلق بشيء من البرود:
"ذكية! ولكن بشيء من الطفولة."
ورفعت بصرها اليه، وهي تقول:
"عم تتحدث؟"
وكاد جويل أن ينتهرها بقسوة، لكنه لاذ بالصمت واكتفى بأن هز رأسه، كانت لا تزال ترتدي القميص والسروال اللذين كانت تلبسهما في الصباح، واستبدلت بالمريلة سترة من البوبلين محلاة بفراء، وأحس للحظة قصيرة بمشاعر الحنو والشفقة تجاهها، وسألها:
"هل تنتظرين حتى أحضر السيارة الى المدخل؟"
وهزت رأسها، وهي تقول:
"تعودت على السير تحت المطر، هل نذهب؟"
وبادرت فخطت خارج المدخل المسقوف، وصار يخطو أمامها بخطوات واسعة ليفتح باب السيارة، وصعدت الى المقعد الأمامي دون أن تنظر اليه، وأغلق الباب خلفها بشيء من العنف الظاهر ثم دار حول مقدمة السيارة ليتبعها.
وعندما استقر على مقعده، بدأ يتفحص كتفي سترته، ووجد أنهما ابتلتا، فخلعها، وألقى بها بشيء من الاهمال على المقعد الخلفي، واقترح عليها أن تفعل بالمثل، ولكنها رفضت بصمت. وهز كتفيه وهو يدير المحرك، وتوقف عند البوابة عندما قالت:

"الى أين تأخذني؟ علي أن أعود الى هنا خلال ساعة."
ونظر اليها في غضب، وهو يعلق:
"ساعة؟"
"نعم، ساعة. سارة لا تنام أكثر من ذلك في فترة ما بعد الظهيرة. ولا بد أن أرجع قبل أن تصحو من النوم."
لم يعلق جويل بشيء، واكتفى بأن أخذ يقود مسرعا على الطريق تجاه المكان الذي أمضى فيه صباح ذلك اليوم، فقد كان موقعا يسمح للسيارة بالانتظار بعيداً عن الطريق، لانه في بقعة منعزلة وهذه ميزة كبيرة ... ولم تنطق راشيل بكلمة طوال الطريق، وخطر لجويل أنها ربما كانت تحاول أن تصوغ قصة تبرر موقفها عندما تتحدث اليه، وأخذ يقاوم رغبة تعتمل في نفسه بين الحين والحين ليتوقف على الطريق طالبا اليها أن تكف عن اصطناع ذلك الدور.
"حسنا ما القصة الكاملة إذن؟"
وتشابكت راحتا راشيل، ورددت:
"ماذا تقصد؟"
"انك تعرفين ما أقصده! أريد أن أعرف كيف بلغت الصلة بينك وبين أبي الى الحد الذي جعله يطلبك للزواج منه؟"
ورفعت راشيل كتفيها النحيلتين، وقالت:
"مضى على معرفتي به سنوات طويلة، وأنت تعرف ذلك يا جويل."
أخذ جويل يلوك طرف السيكار بقلق، ثم قال:
"لأنني قدمتك اليه؟ لكن هذا لا يكفي للتفسير، أستطيع أن أعد على أصابع اليد الواحدة عدد المرات التي قابلت فيها أبي من خلالي، وأنت تعرفين ذلك!"
"أعرف .. أعرف أنك ... لماذا تستغرب أن يطلب أبوك الزواج مني؟ كان دائما يستلطفني."
وبدا فم جويل يعاني من الوهن، وخرجت منه عبارة:
"راشيل! أرجوك بالله!"
ووضعت يدها على أذنيها حتى لا تسمع، ونطقت:
"أوه، يا جويل، أرجوك أن تكف! لم جئت الى هنا؟ ما الذي تريده؟ كل ما بيننا انتهى منذ زمن بعيد، وليس من حقك أن تحاسبني."
وحدق جويل فيها بغضب، وقال:

"الم يحدث أنني؟ يا إلهي! انك لا تشعرين! هل كنت تظنين حقا أن بامكانك أن توافقي على الزواج من أبي دون أن تثيري رد فعل مني؟"
"وما علاقة هذا بك؟"
"أنت تريدين أن تكوني زوجة أبي، أليس كذلك؟ إنك تحبين أبي الآن كما قلت يوما ما إنك تحبينني! اظهري على حقيقتك يا راشيل! أهذه محاولة خبيثة للانتقام؟"
وردت بانفعال:
"لنفرض أن هذا صحيح، ما الذي تستطيع أن تفعله؟"
وساد الصمت لحظات قليلة، وأخذ جويل يحملق بعبوس من نوافذ السيارة الى المطر المنهمر، لم يكن ليصدق ما حدث؟ لم تكن تلك أخلاق راشيل، ولكن سنوات طويلة مضت منذ انفصلا، وتزوجت هي بعد ذلك وأنجبت طفلا، وتنهد، ثم قال في هدوء:
"أخبريني، لماذا احتجبت عني هكذا، ما الذي فعلته في حقك لأثير فيك هذه الرغبة في الهرب مني؟"
وأخذت راشيل نفسا عميقا، وقالت:
"أنت! تسألني هذا السؤال؟ ما فائدة الكلام الآن، يا جويل؟ دفن الماضي والذي يعنيني الآن هو المستقبل، وتصلب فك جويل، وقال:
"على حساب أي إنسان آخر؟"
"هذا غير صحيح، أنت لا تفهم شيئا عن هذا."
"إذن، أخبريني!"
أخذت راشيل تطوي ثنيات سترتها، وقالت:
"سوف أتزوج أباك، يا جويل، ولن يغير ما تقوله أنت شيئا من هذا."
وأطبقت قبضتا جويل، وهو يتمتم بقسوة:
"لا بد أنك يائسة تماما يا راشيل!"
"تماما."
والتفت ينظر اليها ولاحظ الخطوط الغائرة في وجنتيها وعينيها اللتين تفتقدان اللمعان والبريق، لم يكن ذلك الوجه وجه عروس تستعد لعرسها، وسألها:
"هل ذلك بسبب النقود؟ لو كانت المسألة مسألة نقود فانني على استعداد لأن أقدم ما تحتاجينه منها."

والتوت شفتاها بشيء من الازدراء، وقالت:
"لو كنت رجلا لطرحتك أرضا على هذه القحة في حديثك! أنا لست المرأة التي تتزوج بأي رجل من أجل النقود. ان لك أن تزهو بنفسك يا جويل، انك مغرق في الزيف."
بلغت الاستثارة من جويل مبلغها، وأمسك بمعصمها بين أصابعه وأحس بعظامها الهشة ترتعد في يده ... لكنه لم يكن ليتصرف بطريقة وحشية، كان له عقل، وكان يريد أن يستخدم ذكاءه، وأحس بالحاجة الى أن يراها تتلوى أمامه وضغط على معصمها فأجفلت ولكنها لم تصرخ، واقترب منها بطريقة جعلته ينشق رائحتها. وأدرك الاستثارة التي أوشكت أن تتقد بداخله وأحس بشيء من الاشمئزاز من نفسه، فاسترخى في مقعده، وعاد يسألها في عناد:
"اريد أن أعرف شيئا عن زوجك، وعن الطفل، هل مات غيلمور؟ يقول أبي إنك أرملة."
كانت في ذلك الوقت قد أخذت تدلك معصمها، وأجابت:
"أنا أرملة بالفعل."
"وماذا كان اسم زوجك؟"
واعتراها شيء من الدهشة، وقالت:
"اسمه؟ انك تعرف اسمه!"
ونظر اليها نظرة تتسم بالبرود، وألح:
"غيلمور؟ هل هذا هو الاسم الذي كنت تنادينه به؟ غيلمور!"
واحمر وجهها، وقالت:
"أوه! بالطبع لا! اسمه الاول كان ألن."
"الن غيلمور؟ ماذا كان يعمل؟"
وبدا على راشيل شيء من الحيرة وسألت:
"هل هذا شيء مهم؟"
"أعتقد ذلك."
وتنهدت، وقالت:
"كان مهندسا. كان يعمل لدى الدولة."
وبدا كما لو كان قد استساغ العبارة الاخيرة، وقال:
"أفهم، ولكن كم دام الزواج؟"
"سنتين أو ثلاث سنوات؟ ولكن ماذا يهم ذلك الآن؟"
لم يكن جويل يدري سر فضوله، وربما كان وراء ذلك رغبة سادية جعلته يستشعر اللذة في إجبارها على الحديث

عن موضوع يجلب لها الألم، وقال يسبر مشاعرها:
"لا بد أنك عانيت كثيرا في تحمل مسؤولية تربية الطفلة وحدك، هل هذا هو الذي جعلك تقبلين العمل كمديرة منزل لدى الكولونيل فرنشاو؟ ألهذا تتزوجين أبي؟ من أجل سارة؟"
وزمجرت بعنف:
"لا تتجرأ وتذكر اسمها! إنك لا تعرفها، ولا تعرفني أنا أيضا، لماذا لا تنصرف الى حال سبيلك، وتتركني وحدي"
"أريد أن أعرف!"
"إن الأمر لا يعنيك."
"عليك اللعنة! هل تظنين أن الأمر لا يعنيني؟ من حقي أن أعرف."
ازداد صوتها عندئذ حدة، وهي تقول:
"حقك؟ يا جويل، ليست لك حقوق على الاطلاق، فقدت هذه الحقوق عندما ... عندما ..."
وتضاءل صوتها، واستدارت بعيدا عنه، وصارت تحدق في راحتيها، وأضافت:
"هل تعود بي، من فضلك؟"
وانتصب جويل في مقعده، وهو يحدق في منظرها الجانبي. وأحس بأنه قريبا جدا من الحقيقة، كان للحظة واحدة على وشك أن يعرفها، كاملة، وأحس كأنه يعرفها في قرارة نفسه وكان يبتهج بها، ولكن راشيل تراجعت ثانية وشعر بالاحباط، وتمنى لو كانت راشيل رجلا ... إذاً لأجبره بالقوة على أن يبوح بما بداخله، ولكن راشيل امرأة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وعليه أن يجد سبيلا ليطلق العواطف المكبوتة التي تشد لسانها عن الكلام، لكن كيف يتوصل الى ذلك؟
كانت راشيل قد ملكت زمام نفسها ثانية، ونظرت الى وجهه نظرة خاطفة وقالت للمرة الثانية:
"هل تعود بي؟"
وأجاب بشيء من التوتر:
"ليس بعد."
وبدأ يستعرض في ذهنه كل ما قيل. ويحاول أن يجد مما قيل مفتاحا يفتح له الباب المغلق، ما الألفاظ التي جعلتها تثور بتلك الطريقة؟ عم كانا يتحدثان؟ عن زوجها؟ عن غيلمور؟ نعم و... الطفلة. حاول أن يتذكر ما قاله

عن الطفلة، لانه ذكر أنها ستتزوج من أبيه من أجل الطفلة، تفجر غضبها؟ اذن فليحاول مرة أخرى، وقال وهو يبحث عن سيكار آخر:

"ومتى يتم الزواج؟"

وتنهدت راشيل بشيء من القلق، وقالت:

"لا أعرف الموعد بالضبط، ولكن خلال أسابيع قليلة."

"وحتى ذلك الحين ستظلين هنا؟"

"أنا... ربما..."

وسيطر جويل على غضبه، وقال:

"وسارة... هل تعيش معك عندما تتزوجين؟"

وحدقت فيه بغضب، وقالت:

"بالطبع. وهل يمكن أن تعيش في أي مكان آخر؟ أوه! كف عن هذا، يا جويل! أريد أن أعود... طال بي الوقت، وقد تستيقظ سارة."

ورد في شيء من البرود:

"أنا واثق أن هانسون سيكون سعيدا للغاية إذا ما وجد الفرصة ليعنى بها بعض الوقت، ومع ذلك فهي لم تعد رضيعا، كم عمرها الآن؟ ثلاث سنوات؟ أربع؟ لا شك أنها تقدر أن أمها يمكن أن تتغيب أحيانا؟"

صارت راشيل تنشق أنفاسها بطريقة تدل على القلق، وقالت:

"هل تنوي الآن أن تعود بي؟"

وكررتها بشيء من الارتجاف.

"وإذا قلت لا؟"

"يمكنني أن أعود سيرا على الاقدام، لست خائرة القوى."

واتجهت يدها الى مقبض الباب، ولكنه كان أسبق منها، ومد يده ليمنعها من فتحه، ورغم أنها انكمشت الى الوراء لتتجنب ملمسه، وضح أنه كان يتعمد أن يلامسها، وسأل بشيء من السخرية:

"ما الحكاية يا راشيل؟ اذا كنت ستصبحين زوجة أبي، فما الذي يمنع أن يألف أحدنا الآخر بطريقة أفضل، ولعلني ما زلت أذكر جيدا، كيف كنت فيما مضى تحبين أن ألمسك كثيرا."

وصارعت كي تحرر نفسها، أنفاسها تتدافع بقوة، أما هو فرغم نداء العقل الذي كان يحذره من الطريقة التي

كان يتصرف بها، فان شيئا آخر بداخله أقوى من عاطفة اعتبار الذات كان يدفعه الى أن يستمر: كان قربها منه يثيره بشكل كبير، لم يكن هناك مكان للحب في تفكيره. ولكن الرغبة كانت تطل برأسها القبيح، وبالرغم من جسمها النحيل، وشعرها البادي بمظهره السيء وملابسها التي لم تكن تساير الجديد في عالم الازياء كانت راشيل لا تزال امرأة ذات جمال، ولها دائما القدرة على أن تثير الاضطراب في أحاسيسه، بدرجة كان يشعر ازاءها بالحنق ذات يوم.

وصرخت فيه:

"ابتعد عني، كان ينبغي أن أعرف أن النهاية ستكون هكذا، هذا هو كل ما تصلح له يا جويل، أليس كذلك؟"

"ماذا تعنين؟ عليك اللعنة!"

وقالت، وهي تكاد تختنق:

"انني أقول الحقيقة، انك تريد كل شيء في مقابل لا شيء، أليس كذلك؟ الجسد دون العقل! اللذة دون الالم!"

"عم تتحدثين؟"

كان يمسك بكتفيها الآن، وبينما كان عقله يوسوس اليه بانه حصل ما يريد، فالمنطق الهادىء كان يحذره من الاجابة التي كان ينتظرها، وصار يهزها بعنف، وانحل شعرها من العقدة التي كانت تربطه، وتهدل كستائر الحرير حول كتفيها، لم تكن من قبل قد بدت في مثل تلك الصورة...

وتمتم في صوت أجش:

"راشيل..."

وقالت، وهي تلهث:

"ابتعد عني أيها البهيمي! اياك أن تجرؤ على لمسي!"

وتسمرت أصابعه على كتفيها، وهو يقول:

"راشيل! راشيل! لا تخشي مني! يا إلهي... لقد أحببتك من قبل، فكيف أوذيك؟"

وخلصت نفسها منه، وهي تقول:

"هل أصدق أنك لا تفعل ذلك؟ أتظن أنني أصدقك؟"

وألح عليها بصوت أكثر حدة:

"لم بحق الله؟ ما الذي فعلته بك؟ قولي لي ان كان شيئا من ذلك قد حدث؟ لقد هجرتني؟ أنت التي هربت دون أن تخبري أحدا بالمكان الذي ذهبت اليه! يا إلهي! لقد كدت أجن."

وتجعدت شفتا راشيل، وقالت:
"انك لا تفهم يا جويل! حتى اللحظة الحاضرة ليس لديك أي فكرة عما أتكلم عنه. ان سارة ليست ابنة الثانية أو الثالثة من العمر! عمرها الآن خمس سنوات ... هل تفهم ما يعنيه ذلك؟
وارتخت يدا جويل على كتفيها، وقطب حاجبيه، وظهرت خطوط غائرة على جبهته، وبدأ شعور غريب بالألم يصيب معدته، ولم يكن يدري أنها تحدق فيه، وتختبر ردود فعله، وتتلذذ باحساسه المرهق بالفزع والشك وعندئذ وجد في التظاهر بالجهل عذرا منطقيا، وألح بشدة:
"ماذا تقولين؟"
ولكن نشوة راشيل بالنصر لم تدم طويلا، وحركت كتفيها يائسة، وهي تتمتم في غير وضوح:
"ما كان ينبغي لي أن أخبرك."
"ما كان لك أن تخبريني بماذا؟ هل تقصدين أن تقولي .. ان هذه الطفلة .. سارة .. هي ابنتي؟"
ونظرت اليه راشيل، وقد أحست بشيء من الوهن، وقالت:
"وهل تظن أنها تنتسب الى شخص آخر؟"
وحرك رأسه في ارتباك، وهو يقول:
"غيلمور! زوجك!"
"لم يكن لي أي زوج، يا جويل! كنت أعمل لدى الكولونيل فرنشاو طيلة السنوات الخمس الاخيرة."
امتدت يد جويل في غضب الى مفتاح السيارة ليدير المحرك، وكاد خلال ذلك أن يدفع براشيل بعيدا عنه، وارتعد وجهها الشاحب، وقالت:
"ماذا تفعل؟ .."
وأجاب في أنفاس مضطربة:
"ما الذي تظنين أنني فاعله؟ سوف أعود بك. أريد أن أرى ابنتي، إن كانت ابنتي!"
وحاولت راشيل أن توقف يده، وجذبت ذراعه بقوة لمدة لحظة، وهي تقول:
"أوه لا! لا يمكن أن تفعل ذلك!"
"لن تستطيعي أن تمنعيني."
"سأمنعك بالتأكيد، سأعمل كل ما في وسعي لأمنعك."

واضطر إزاء ذلك أن يتوقف لحظة، ثم التفت اليها بنظرة فيها شيء من الاحتقار وسأل:
"لم؟ لم لا أرى ابنتي؟ هل تخشين أن أراها؟ هل تخشين أن أكتشف كذبك؟"
"إنه ليس كذبا، دعني أشرح يا جويل من فضلك، دعني أفسر."
"ما الذي يمكنك أن تفسريه؟"
وهزت راشيل رأسها، وقالت:
"لماذا تريد أن تراها؟ إنك لا تحب الاطفال، يا جويل! كنت دائما تردد ذلك."
ولكن، يبدو أنه أصبح لي طفلة؟"
وخاطبته راشيل بلهجة متشددة:
"وهل تعتقد أن ذلك يؤهلك لتدعي أن سارة ابنتك؟ يا إلهي."
ودفع جويل بيديه خلال شعره، لم يكن في طاقته أن يتحمل كل ذلك، ربما كانت خدعة أو مناورة من جانب راشيل لكي تجعله يتلوى، لا بد أنها كذلك. وقال في شيء من التوتر:
"حسنا! انني أعترف، الاطفال لا يلعبون دورا في نمط حياتي، فانا رسام يا راشيل، لست مربية."
"بالضبط."
"وهل تعتقدين أن هذا يجيز لك أن تحتفظي بوجود ابنتي في الحياة سرا طوال تلك السنين؟"
أخذت راشيل تندف بعصبية خصلة من شعرها وقالت في ارتعاش عصبي:
"ارجع بذاكرتك الى الوراء يا جويل. هل بامكانك ان تتخيل رد فعلك منذ ست سنوات لو انني جئت اليك آنذاك، واخبرتك بانني أنتظر طفلا منك؟"
وتململ جويل في قلق، فمنذ ست كان لا يزال يشق طريقه. منذ ست سنوات كان الطموح قوة كبيرة بداخله، كان ذلك الطموح مؤثرا، ولكن بشكل مختف، وفي أية حال.. وتمتم جويل:
"ما كان ينبغي أن يحدث ذلك أبدا ... كان ينبغي أن أتأكد أنه لا شيء ينبغي أن يفسد عليك متعتك! يا إلهي! هل تسمع يا جويل؟ إنك أناني! وانك جدير بالازدراء! انك كذلك! وسوف تظل دائما كذلك! هل لي أن أذكرك بانني لم أعرف ما

كنت تنوي أن تفعله معي؟ لقد وثقت فيك، يا جويل! وكنت أظن أنك أحببتني بحق!"

واغتم وجه جويل، وحاول أن ينفي عن نفسه التهمة، وهو يقول:

"هذا ليس صحيحا، يا راشيل! لقد أحببتك بحق! لقد أحببتك! إن الذي وقع... وقع... لأن كلينا أراد ذلك!"

ووضعت راشيل راحتي يديها على أذنيها مرة ثانية، وهي تقول:

"لا!"

"نعم! كنت أريد أن أشاركك حياتي يا راشيل!"

"أشاركك حياتك؟ أعيش معك! أيها الدنيء!"

"ربما كنت أقصد فعلا في البداية."

وقاطعته:

"كنت ستجد شخصا آخر!"

"لا! عليك اللعنة! كنت سأتزوجك."

"يا لك من شهم!"

"لم يكن الزواج في خطتي، يا راشيل... عند ذلك الوقت!"

"ولم يكن الأطفال في خطتك في أي وقت."

ومد جويل احدى يديه الى مؤخرة عنقه، كان يشعر بالاضطراب، بل لم يكن قادرا على التفكير، ودمدم قائلا:

"المواقف تغير الأحوال."

"ماذا يعني ذلك؟"

"يعني أنه اذا... ما زلت أقول اذا... كانت سارة ابنتي... فسوف يكون علي أن أغير خططي للمستقبل."

واتسعت حدقتا عينيها في شيء من الشك، وتساءلت:

"عن أي شيء تتحدث؟"

وأجاب:

"ينبغي بالطبع أن نتزوج."

وكادت راشيل تقهقه في وجهه، وهي تقول:

"نتزوج! نتزوج! ما كنت لاتزوجك ولو كنت آخر رجل على الارض! يا إلهي! ما أيسر أن يصبح الرجل مغرورا! هل تظن بأمانة أنني يمكن أن أتزوجك الآن؟"

وامسك جويل بساعديها بقبضة تنم عن الشعور بالاثم، وهو يقول بغضب شديد:

"ليس من حقك أن تتكلمي كثيرا في هذا الموضوع."

"الا يحق لي ذلك؟ وماذا يكون رأي أبيك؟"

كان جويل قد نسي للحظة السبب الذي جاء من أجله الى هنا - وأجاب:

"لا يهمني ما يقول أبي، اذا كانت الطفلة لي، فهي لي."

"انها ليست سلعة تملكها يا جويل، انها انسان، انها انسان خاص للغاية، ولها حقوق."

"ماذا تعنين؟"

"اعني أن سارة ابنتي، ربما تكون قد قمت بدور ثانوي في حملي بها، ولكنك لا تستطيع أن تثبت ذلك."

"الا تبدو قريبة الشبه بي؟"

والتوت شفتا راشيل، وقالت:

"الحق أنها تكاد تكون نسخة منك!"

وانضغطت عضلات معدة جويل بطريقة غريبة للغاية، وأحس بأنه يريد - بتهور - أن يرى سارة وقال:

"اذن سيكون علي أن أرفع دعوى!"

وهزت راشيل رأسها وقالت:

"سوف أنكرها، وسيكون بامكاني أن أقول أنها ابنة جيمس."

كاد جويل أن يضربها عند ذاك، وأحس برغبة كبيرة في أن يفتح بقوة باب السيارة وأن يترجل منها الى الخارج تحت وابل المطر لينشق أنفاسا من الهواء البارد الرطب في تلك الاراضي البور، هل تجرؤ على توبيخه بتلك الطريقة الساخرة بالادعاء بأن الطفلة لأبيه؟ وبقي على تلك الحال القلقة بضع دقائق قبل أن يجرؤ على العودة الى السيارة ليجلس الى جوارها مرة ثانية، كان عندئذ قد عاود هدوءه بدرجة واضحة، ولكنه لا يزال عنيدا، وقال في شيء من الثبات:

"أريد أن أرى ابنتي... سوف أفعل ذلك بطريقة أو بأخرى... لن تستطيعي أن تمنعيني من ذلك مهما قلت أو عملت يا راشيل."

وظلت راشيل صامتة لبضع دقائق، ثم قالت في هدوء:

"وما الخير في ذلك، يا جويل؟"

وأغلق جويل عينيه في ألم مبرح من الانفعالات التي كادت تمزقه. مرت الدقائق الخمس عشرة الاخيرة وهو يعاني أقسى أنواع العذاب النفسي ورأسه تكاد تتصدع من شدة

الكراهية؟ ماذا تريد هذه المرأة أن تفعل به؟ وتمتم يحدثها:
"انك امرأة قاسية... ماذا غيرك؟"
وأجابته ببرود:
"أعتقد أنك تعرف الاجابة لهذا السؤال... والآن اذا كان من واجبك أن تعود بي... فهل تعود بي الآن؟"

٣ - أبي... أبي ماذا فعلت؟

غادرت راشيل السيارة، بعدما تغيبت أكثر من ساعة، وخطر لها أن سارة ربما استيقظت بالفعل وأنها بدأت تناديها، مما جعلها تهرول نحو الباب تختلج في نفسها مشاعر القلق.

وتبعها جويل يخطو بخطى واسعة، مرتديا سترته الجلدية الزرقاء، بوجه شارد قاتم، وهو يقول:
"انتظري، انني آت معك."
وتوقفت راشيل، معترضة:
"هذا منزل الكولونيل، يا جويل. لا أستطيع أن أدعوك بلا إذن منه."
ونظر اليها جويل ببرود، وقال:
"أوه... لا... هل قلت ذلك لابي أيضا؟"
وتنهدت راشيل، وقالت:
"أبوك... يعرف الكولونيل فرنشاو."
"أكاد أفهم! شريك في التآمر!"
وكانت أعصاب راشيل قد أصبحت مشدودة وقالت:
"لا تكن سخيفا، يا جويل! سأذهب وأخبر الكولونيل! سوف أستأذنه."
وسبقها جويل الى المدخل وهو يقول:
"لا تشغلي بالك! لن تجعليني أنتظر أكثر من ذلك!"
ونظرت اليه راشيل بغضب، وهي تجتازه، ثم توقفا في الردهة الداخلية، لم تكن تدري ما تفعل، كان البيت يبدو هادئا، وكانت راشيل تعرف أن الكولونيل يهجع للراحة في فترة ما بعد الظهر، وأصبحت المشكلة كيف تجرؤ على اصطحاب جويل بدون أن تستأذن الكولونيل أولا؟ وقالت:
"هيا بنا..."
كان جويل نافذ الصبر... خلعت راشيل سترتها وبدأت تصعد الدرج الى سكنها في الطابق الأول، حيث اتجهت

الى باب في نهاية الردهة، ودخلت الى غرفة الجلوس. وكانت هناك أبواب أربعة تنفتح عليها، أحدهما يؤدي الى غرفة نوم راشيل والثاني الى غرفة سارة والثالث يؤدي الى مطبخ صغير والباب الأخير يؤدي الى الحمام ..

ووقف جويل في المدخل وقال بصوت أجش:

"أين هي؟"

وأجابت راشيل وهي تخشى اللحظة التي يرى فيها الطفلة لأول مرة:

"ربما لا تزال نائمة."

ورغم أن راشيل كانت لا تزال تحاول أن تؤجل ما لم يكن منه بد، انفتح باب غرفة سارة، ووقفت سارة بنفسها في فتحة الباب تنظر بعينين طارفتين وشعرها الذي يشبه الى حد كبير شعر جويل يتدلى على كتفيها النحيلتين، أما عيناها القاتمتان بشكل غريب، ووجنتاها الشاحبتان فان الشبه بينها وبين ملامح أسرة كنغدوم لم يكن ليخطئه أحد.

وصاحت الصغيرة:

"ماما؟... ماما ... أنت أيقظتني."

تملكت راشيل زمام نفسها، وهي لا تجرؤ على النظر الى جويل، الذي كان وجهه العابس صورة طبق الاصل عن وجه سارة، وقالت:

"آسفة يا عزيزتي، حضر شخص لزيارتك."

واضطربت رموش سارة الطويلة، وقالت:

"من؟"

ولم تظهر على وجهها ابتسامة الترحيب لتلين من ملامحها العابسة. وانفعل جويل عندئذ:

"انني... أنت... إنك... أنا ... صديق لك."

ونظرت سارة اليه بشيء من الشك، وتمتمت:

"ليس لي أصدقاء."

وركع جويل أمامها، وهو يقول:

"أنا متأكد أن لك أصدقاء.... ما رأيك في الكولونيل؟ وما رأيك في هانسون؟"

وأجابت سارة:

"لا أحب أندرو! والكولونيل كهل جدا!"

واستفسر جويل:

"أندرو؟"

وقالت راشيل بشيء من التردد:

"أندرو هانسون."

وعلق جويل:

"وبالطبع لا يوجد شخص آخر تلعبين معه؟"

وأجابت سارة:

"أنا لا ألعب انني مقعدة، ألا ترى؟"

"ماذا تقصدين؟ ما الذي تخفينه عني؟"

وتململت راشيل قائلة:

"سارة تعاني من فقر دم بسيط، هذا كل شيء، انها تحت العلاج."

وبدا أن جويل لم يقتنع بما سمع، واستمر يسأل:

"ما نوع مرض الدم الذي تشكو منه؟"

"ليس شيئا خطيرا."

ونظرت راشيل الى سارة نظرة ثاقبة، وأكملت:

"أرجوك يا جويل! ليس الآن!"

وظل جويل يلح في السؤال:

"ومن الذي أسماك مقعدة، يا سارة؟"

وبدت سارة وقد اعتراها شيء من القلق، واتجهت الى أمها تسأل:

"ماما؟"

وأجابت راشيل بسرعة:

"أعتقد أنه الكولونيل."

وعلقت سارة:

"سمعتهم في المستشفى يتحدثون .. رجل قال: أين هي؟ وامرأة قالت: من؟ وقال الرجل: المقعدة الصغيرة."

وصاحت راشيل:

"أوه! سارة! ربما لم يكونوا يتحدثون عنك."

وألح جويل في السؤال مرة أخرى:

"أي مستشفى؟ يا سارة؟"

وأجابت:

"المستشفى الذي في هيوستن."

وقاطعتها أمها:

"كفى، يا سارة!"

واتجهت الى جويل:
"ألا ترى يا جويل أنك قلت ما فيه الكفاية."
ودمدم جويل مقطبا:
"أريد أن أعرف المزيد."
"أرجوك، يا جويل! لا تثر المشكلات."
كانت سارة قد أحست أن اللذين يتحدثان ليسا متعاطفين فقطبت وصارت تسأل في حدة:
"ما الحكاية يا ماما؟ لماذا تنظر الى ماما هكذا؟ لماذا جئت هنا؟ لست صديقا لي وأنا لا أحس نحوك بأي حب."
واضطرت راشيل أن توقف سارة وقالت:
"سارة، هذا لا يليق، لا بد أن تعتذري للسيد كنغدوم."
وأجابت سارة:
"لا أحس بأنني ينبغي أن أفعل ذلك!"
وأزاحت سارة يد أمها ثم سارت عبر الغرفة الى حيث كانت بعض الدمى. كان جويل يرقب الطفلة عن كثب، ووجدت راشيل نفسها ترقب جويل، ترى ماذا كان رأيه فيها، تلك الطفلة التي لم يكن يعرف بوجودها حتى اليوم؟ هل خاب أمله عندما لم يجدها ذات بشرة بيضاء قرنفلية ريانة، بعينين تشبهان عيني الدمية، وبشعر متجعد؟ ومع ذلك كان لدى سارة الشيء الكثير، اخلاصها، وحبها وسرعة خاطرها، وأكثر من ذلك كله كنز الحب الذي كان حتى الآن يتجه الى راشيل.
وتركت راشيل العنان لخواطرها تتخيل كيف يمكن أن يكون رد فعل سارة لو علمت أن جويل كنغدوم هو الأب الذي كانت تظن أنه مات.
وساد الصمت لدقائق عديدة، ثم تحدث جويل:
"هل فحصها أحد الاخصائيين؟"
"فحصها كثيرون! إنها ليست الأولى أو الأخيرة، سوف يكون هناك دائما أطفال مثلها."
ودمدم جويل:
"ولكن الآخرين ليسوا أطفالي."
وردت راشيل بصوت أجش:
"ولا سارة طفلتك، أرجو أن لا تنسى ذلك!"
"راشيل، ان سارة ابنتي كما هي ابنتك، أما عن الدوافع التي تجعلك تحتفظين بشخصيتها سرا فهذا شيء يخصك،

ولكنني أرى أن هذه الدوافع لن تصمد كثيرا لأي تحقيق يجري أمام القضاء."
وهنا التفتت اليه راشيل، تقول:
"القضاء؟ أصبحت سارة تعني لك الشيء الكثير؟"
وسأل في عبوس:
"ماذا كان ينتظر مني؟ أنا لست قارىء أفكار، كيف بامكاني أن أعرف أنك كنت حاملا؟"
"لم تكن لتهتم لا بهذا ولا بذاك."
واغتم وجه جويل عندئذ، وقال:
"راشيل، لو أنني كنت أعلم..."
"أوه، نعم! لو علمت أنني حامل، ماذا كنت تقترح، يا ترى؟ التبني أم الاجهاض؟"
كان جويل يشرع في الخطو تجاهها عندما انفتح باب غرفة الجلوس ووقف أندرو هانسون على عتبة الباب يقول:
"راشيل، ظننت أنني سمعت أصواتا، أوه!"
وكان قد لمح جويل، واصطنعت راشيل ابتسامة باهتة، وحاولت أن تطمئنه بطريقة كان فيها بعض الحرج وقالت:
"السيد كنغدوم على وشك الرحيل، كان يريد أن يرى سارة."
كانت عينا راشيل تتوسلان اليه ليرد بالموافقة، ولكنه لم يكن على استعداد لذلك التوسل، كان وجه هانسون يعكس فضوله، ولكنه استطاع أن يخفي ذلك برجولة، وهو يقول:
"فكرت أن من واجبي اعلامك أن الكولونيل استيقظ وينتظر الشاي."
وأومأت راشيل برأسها، وقالت:
"شكرا."
وأجبرت نفسها على النظر نحو جويل، وقالت:
"عليك أن تخرج الآن، يا جويل!"
ونظر جويل اليها، ثم نظر الى هانسون، واستدار ببصره الى سارة وقال:
"اذهبي أنت الى عملك.. وقومي بواجباتك! وسأرعى أنا سارة."
وجرت سارة عبر الغرفة لتخبىء وجهها بين قدمي راشيل، وهي تقول:
"لا أريد أن أبقى معه، أريد أن أذهب معك."

وتجهم هانسون، وقال:
"لا تجزعي يا سارة سوف يتصرف السيد كنفدوم طبعا."
ورد عليه جويل ببرود:
"من الأفضل أن تعنى بشؤونك الخاصة، يا هانسون."
"أوه! أرجوك يا جويل!"
وحاولت راشيل أن تتوسل اليه، لكن جويل تجاهلها، واستمر يقول:
"هل تتركنا يا هانسون؟ أم ينبغي أن تطرد بالقوة."
كان جويل يخاطبه بشيء من الاهانة، والتفت الرجل، وانصرف وهو يردد أنه لا بد للكولونيل أن يعرف بما حدث وأن يقول فيه قولته، وحدقت راشيل تجاهه، ووقع بصرها على جسم سارة الصغير، وقالت:
"أوه، يا جويل! انصرف قبل أن ترتكب حماقة أخرى!"
ورد عليها بوحشية:
"حان الوقت لتدركي أنه لا يمكنك أن تدفني رأسك في الرمال بعد ذلك، هل تعتقدين أنني سأقبل إبقاء الطفلة هنا؟ ثم انك لم تخبريني بعد لماذا تتزوجين أبي؟ انني أصر على أن أعرف وفي سبيل ذلك لا تعنيني مسألة اللياقة."
وأغلقت راشيل عينيها لحظة، وفتحتهما ثانية، ثم قالت:
"ليس لدي وقت لمناقشة ذلك معك، يا جويل!"
"اذن ماذا أفعل؟ هل أبقى في القرية حتى تجدي الوقت؟"
"لا! اذا كان لا بد لك أن تعلم، فسوف أكون في لندن الاسبوع المقبل. لقد وجد أبوك سكنا خاصا لي، لاقيم فيه حتى نتزوج. وبعد ذلك - على ما أظن - سوف نعيش في الخارج."
وصاح جويل في دهشة:
"في الخارج؟ أين؟"
"أظن أن... لأبيك بيتا... في احدى الجزر اليونانية؟"
"نعم، لياركوس، وماذا سيكون حال المصرف؟"
وهزت راشيل رأسها، وقالت:
"ذلك سيكون أفضل لسارة.."
"اذن فالموضوع له علاقة بسارة! لن أسمح لك بهذا."
"انك لا تستطيع أن تمنعني."
"سوف أحاول."
ونظرت اليه سارة، وحاولت أن تغيظه بقسمات

وجهها، وهي تقول:
"لا أحبك."
ورد عليها يقول:
"ان هذا شيء يؤسف لأنني أحبك... أحبك كثيرا..."
واستدار وترك الغرفة بعدما أومأ ايماءة ساخرة من كليهما. وسمعت راشيل وقع قدميه، وهو يهبط الدرج، وسمعت كذلك صوت الباب الخارجي ينغلق وراءه، وأخيرا سمعت صوت زئير محرك المرسيدس القوي، ورفعت سارة رأسها عندما سمعا صوت السيارة يذهب بعيدا وسألت بقلق:
"هل سيكون كل شيء على ما يرام؟"
وانحنت راشيل، وعانقتها في رقة:
"بالطبع يا حبيبتي! والآن علي أن أذهب لأقدم الشاي للكولونيل، والا وقعت في مشكلة."
كانت سارة منشغلة تماما بما سمعته في حديث جويل، وسألت أمها في شيء من الضيق:
"ماذا يقصد يا ماما؟ هل أبوه هو الذي سيصبح أبي؟ هل سيعيش معنا كذلك؟"
"لا يا حبيبتي!"
"ولكنه قال بالفعل أنك ستتزوجين أباه؟ ألم يقل ذلك؟ لقد سمعته.."
"سارة! الرجل الذي كان هنا منذ لحظة هو ابن السيد كنفدوم، ولكن له بيته الخاص، وهو لا يعيش مع أبيه."
"ولم لا؟"
"عندما يكبر الناس، ويمكنهم الاعتماد على أنفسهم، يعيشون في بيوتهم الخاصة."
"ولكنني لن أفعل ذلك!"
"البنات عندما يكبرن عادة يقابلن أشخاصا ويقعن في الحب، ثم يتزوجن، ويكون لهن بيوت وأطفال."
"مثلما فعلت يا أمي؟!"
وترددت راشيل، ثم قالت:
"مثلما فعلت."
"ولكن لماذا مات أبي؟"
وتنهدت راشيل، كان قد مضى وقت طويل منذ أن أثير هذا الموضوع لآخر مرة. وكانت راشيل بعد المقابلة بينها

فراشة المحبة

وبين جويل غير مهيأة للاجابة عن تلك الاسئلة، وقالت:
"حبيبتي! علي أن أحضر الشاي للكولونيل، هل تأتين معي أو تنتظرين هنا؟"
"سوف آتي معك، فقط سأحضر هيلغا، انها تحب أن تتفرج عليك وأنت تقدمين الشاي."
كانت هيلغا دمية صنعتها راشيل من قصاصات القماش منذ ثلاث سنوات مضت، وكانت قد أصبحت رثة وقديمة، ومع ذلك ما زالت مركز اهتمام سارة، تحرص على اصطحابها الى كل مكان، واخذت راشيل تنتظر، وهي تحاول أن تهدىء من قلقها، كانت سعيدة بأن لها ما يشغلها ويشغل تفكيرها، وعندما التحقت بذلك العمل كانت تعلم أنها سوف تقابل جويل ان عاجلا أم آجلا... ولكنها لم تكن تتوقع أن تكون المقابلة على تلك الصورة من المرارة والألم.
كان الوقت متأخرا عندما وصل جويل بسيارته الى شارع بيزووتر، ثم انعطف الى لانكسترميوز وكان قد توقف في احدى مناطق الخدمة على الطريق، والتهم بعض شطائر اللحم اذ كان الجوع والتعب أوشكا أن ينالا من قدرته على القيادة، وكان يريد أن يحتفظ بنشاطه العقلي عندما يعود الى لندن.
جعل جويل السيارة تنتظر عند قاعدة الدرج الضحل الذي يؤدي الى الباب وكانت غرفة المكتب الخاص بأبيه تقع في الجزء الخلفي من المبنى حيث يمضي معظم وقته، وكان مع جويل مفتاح للباب وأدار المزلاج، فانفتح الباب على الردهة، وكان الدرج المؤدي الى الطابق الرئيسي يقع أمامه مباشرة.
سار جويل بقلق عبر باب دوار وظهر ضوء من تحت عقب الباب في نهاية الطرف البعيد للممر فخطا تجاهه بخطوات واسعة، وفتح باب غرفة مكتب أبيه دون استئذان. وكان جيمس كنغدوم يجلس الى مكتبه منشغلا بالعمل. وزال غضب الوالد عندما رأى جويل... وسرعان ما رسمت ملامح وجهه ابتسامة ساخرة كانت تشبه الى حد كبير ابتسامة جويل... لقد كانا متماثلين، غير أن وجه جيمس كنغدوم تظهر عليه آثار السن والخبرة، وشعره ابيض تماما. ونهض يقول:
"جويل! أي مفاجأة. لم أكن أنتظرها..."
وأغلق جويل باب المكتب، وأسند ظهره اليه، وقال

في تجهم:
"لا تنظر الي هكذا، إنك تعرف لماذا أتيت الى هنا؟"
ورفع جيمس حاجبه الكثيف، وهو يقول:
"حقا؟!"
ورد جويل بطريقة يحاول أن يختبره بها:
"دون أدنى شك!"
وقال جيمس:
"حسنا؟ ترى ما الذي جعلك تفكر في زيارتي؟ أعتقد أن هذه هي الزيارة الثانية خلال الشهور الستة الماضية."
وأجاب جويل باختصار:
"حياتي مليئة بالعمل."
"أنا متأكد من ذلك، وعلى الأقل بسبب التكاليف التي أرسلها اليك."
وبدت على وجه جويل بعض السخرية، وهو يقول:
"آه، أعترف لك بذلك، فأنا ابن جيمس كنغدوم صاحب مصرف كنغدوم، ولا شك أن ذلك يحقق لي بعض الامتيازات، ومع ذلك أجرؤ على أن أقرر أن موهبتي هي التي تضمن العيش لي، وليس لاسمك في هذا فضل."
وأضاف جيمس في شيء من الجفاف:
"ووصية جدتك لأمك!"
"وهذه أيضا على الرغم من أنني في السنوات الاخيرة أعدت توظيف معظمها."
ومد جيمس كنغدوم يده يتحسس السيكار، وهو يقول:
"كم تستغرق من الوقت لتصل الى هدفك من هذه الزيارة. لا شك أن الموضوع يتعلق براشيل طبعا؟"
وسأله جويل بلهجة ساخرة:
"وكيف عرفت أن هذا هو الموضوع؟"
"لم أعمل ذهني، أخبرني فرنسيس."
وعلق جويل:
"أكاد أفهم... وكيف استطعت ذلك منه؟"
"الحق أنني كنت أود أن أراك... ولما لم أجدك سألت فرنسيس عن مكانك."
وعلق جويل بلهجة متشككة:
"وهو أخبرك؟ بهذه البساطة؟"

"لا ! كان حريصا للغاية! وقال إنه كان يظن أنك ذهبت مع اريكا لمدة يومين."

"ثم؟"

"أجابت اريكا على الهاتف."

"وطبعا لم تكتف بما قاله فرنسيس، وحاولت أن تتأكد، وماذا قالت لك؟"

"ما أخبرتها أنت به على ما أعتقد... أنك كنت في عمل في يوركشير."

وتكلم جويل، وكأنه يلعن:

"أفهم! لست بحاجة الآن أن تذهب الى أبعد من هذا... بامكاني أن أخمن ما حدث بعد ذلك، وأستطيع أن أفهم لماذا كتم عنك فرنسيس الخبر؟ وفي أي حال فالمهم أنني رأيت راشيل، ورأيت ابنتي!"

ورفع الوالد حاجبيه من جديد، وقال:

"ابنتك؟!"

"نعم، ابنتي... واذا كنت تظن أنني سوف أسمح لك بأن تأخذها بعيدا عني، فانك تخطىء خطأ كبيرا!"

ورد الأب بهدوء:

"لا أعتقد أن لك رأيا في الموضوع، ولا تظن أن بامكانك ان تهددني!"

ووضع جويل راحتي يديه على المكتب، وهو يسأل في تحد:

"تعتقد ألا رأي لي في هذا الموضوع!"

وتنهد الأب بقلق، وقال:

"كف عن التصرف بهذه الطريقة الحمقاء، يمكنك أن تتفوق علي جسديا. ولكن ماذا يفيد ذلك؟ هل تظن أن راشيل تعجبها مثل هذه الوسائل البدائية، هل يصل بك الأمر الى ذلك؟"

"دعنا نستبعد اسم راشيل عن الموضوع مؤقتا، هل نتفق على ذلك؟"

"لا أفهم كيف؟! ان لها فيه شأنا كبيرا."

وهنا نهض جيمس كنغدوم - رغم مشيئته - على قدميه، فقد هيء له أن منظر ابنه وهو يطل عليه من عل كان يعني تهديدا لكيانه، وقال:

"نحن متمدنون، يا جويل، حاول أن يكون سلوكك في هذا الاطار."

ورد جويل بعنف:

"هل من التمدن أن أقبل بأن يتزوج أبي المرأة التي حملت طفلي؟"

"لم تكن تعرف شيئا عن راشيل وهي تحمل طفلك... يا جويل!"

"لكنك أنت كنت تعرف!"

"في الحقيقة... نعم."

"ماذا؟ ماذا قلت؟"

وتزحزح جيمس كنغدوم بشيء من الضيق، وأجاب:

"سمعت ما قلته يا جويل، كنت أعرف، كنت أعرف أن راشيل كانت تنتظر منك طفلا!"

وهز جويل رأسه، وهو لا يكاد يصدق، بالرغم من كونه سمع الكلمات، سمعها بوضوح تام. ولكنه لم يستطع أن يصدق ما سمع، وتصلبت قبضته على سترة أبيه وقال في شيء من القسوة:

"ماذا تقول؟ كيف استطعت أن تعرف أن راشيل كانت حاملا؟"

"إنني... إنني كنت أعرف..."

حاول أبوه أن يجذب سترته من قبضة جويل وأكمل:

"جاءتني راشيل... وكانت يائسة، وطلبت مني المساعدة.."

كانت عينا جويل، وهو يسمع ذلك، تلمعان كخيوط من الجليد، وصار يردد:

"هي! طلبت مساعدتك! وما الذي استطعت أن تفعله من أجلها؟"

"أعطيتها المال لتتخلص من الجنين بالاجهاض."

"إجهاض! ولكن... ولكن..."

وختم له أبوه الجملة بشيء من البرود:

"ولكنها لم تستخدم المال في اجراء عملية الاجهاض، بل استخدمته في الهرب الى الشمال، لتعيش منه وهي تنتظر ولادة الطفل."

وسأله جويل:

"وكنت تعرف ذلك؟"

وهز أبوه رأسه بقوة، وقال:

"لا! قلت لك إنني أعطيتها النقود لتتخلص من

الجنين بالاجهاض... ولم أكن أعرف أنها لم تفعل ذلك."

كان جويل يشعر بصداع شديد أشد من أي وقت مضى، منذ أن سمع أن راشيل كانت على علاقة بأبيه... راشيل تتوجه الى أبيه وتتجنب عن عمد أن تخبره هو بأنها حامل!

ونشق نفسا طويلا، ونظر الى أبيه من جديد:

"ولم يخطر لك بالطبع أن تخبرني؟ أليس كذلك؟"

"ألحت علي راشيل في الرجاء ألا أفعل؟"

"ومنذ متى كنت تحترم رغبات الآخرين؟"

وأخذ جيمس يتحسس كرسيه المصنوع من الجلد وبدأ يهوي بجسمه ببطء على الكرسي، وصار ينظر بمرارة الى ابنه ويقول بصوت أجش:

"إذا كان استعراض البطولة قد انتهى، فإنني أقترح أن نتناول الموضوع الآن بطريقة هادئة متعقلة."

"وكيف أتصرف لكي أكون هادئا ومتعقلا كما تريدني؟"

"أريد الا تتدخل في هذا الموضوع! انه موضوع بيني وبين راشيل."

"لا يمكن أن يكون كذلك بعد الآن... أريد أن أعرف بأي حق أعطيت راشيل المال لتبدد طفلي؟"

عندئذ ضرب جيمس كنغدوم على المكتب بعنف، وقال:

"إنك تتصرف بطريقة مثيرة، يا جويل؟ كانت راشيل في يأس شديد، هل كنت تريد أن أطردها؟"

وأقبل جويل على المكتب من جديد، وهو يقول:

"كان بامكانك أن ترسلها الي، بل كان بامكانك أن تخبرني."

"هل تعتقد أنها كانت تقبل الذهاب؟ أعني... اليك؟"

وكانت ملامح جويل تعبر عن الازدراء، وقال:

"أعتقد أنك لم تكن تريدها أن تفعل ذلك، يا لها من فرصة أتيحت لك لترد بها على سلوكي ازاءك عندما كنت في كل مناسبة أظهر العناد لتسلطك."

"هراء."

ورد جويل بسخرية:

"هراء؟ لا أظن ذلك."

وسأله جيمس بغضب:

"الا يخطر لك أن تفكر لماذا لم تحضر راشيل بنفسها اليك؟"

"... كانت تعلم أنها ان حضرت الي فلن أعطيها النقود من أجل الاجهاض."

"أن ماذا كنت ستفعل؟"

تردد جويل للحظة قصيرة، وقال:

"كنت سأتزوجها."

وحدق فيه جيمس بسخرية، وقال:

"هل كنت تفعل ذلك؟ هل تتصور بأمانة أن راشيل كانت تقبل الزواج منك في تلك الظروف؟ يا إلهي! انك متعجرف، يا جويل!"

"من شابه أباه فما ظلم، يا أبي!"

ورد جيمس ساخطا:

"هدا... ان راشيل لم تأت اليك لأنها عرفتك على حقيقتك، شخصا متطلعا أنانيا، كنت أكبر منها بعشر سنوات، ولم يمنعك ذلك من أن تشبع رغبتك على حساب تدمير حياتها."

وأشاح جويل بوجهه بعيدا، وصار يدمدم بعنف:

"لم يكن الأمر كذلك، كنت أحبها."

ونفخ الأب في الهواء من أنفه نفخة قوية تعبيرا عن الازدراء، وهو يقول:

"الحب! إنك لا تعرف معنى الكلمة!"

واستدار جويل في غضب تجاهه، يقول:

"أنت إذن الذي يعرف معنى الحب؟ بعد أن تزوجت باثنتين!"

واغتم وجه جيمس، وقال:

"أحببت أمك، يا جويل! كنت أحبها كثيرا! وعندما ماتت... كانت أم فرنسيس على النقيض من ذلك، ولم يكن مقدرا لزواجنا أن يغدو قصة حب، بل عاش كل منا حياته الخاصة."

وأكمل له جويل الجملة:

"مستمتعا بها الى أقصى حد... نعم... لم أكن صغيرا حتى لا أدرك ما كان يدور يا أبي! كل أولئك الضيوف الذين يترددون على البيت، لم تكن قديسا! ومع ذلك فأنت تجلس لتثرثر كالأطفال عن الانانية وعن الطموح، ألم تكن أنت أنانيا؟... ألم تكن طموحا؟"

"من أجلك، يا جويل! فقط من أجلك أنت!"

وهز جويل رأسه، وهو يقول:

"من أجلي!"

"إنها الحقيقة... فأنت ابني الأكبر، يا جويل! وابن المرأة التي كنت أقدسها. هل تلومني لأنني أردت أن أصوغك في القالب الذي أراه؟"

وقاطعه جويل وهو يذرع أرض الغرفة بشيء من القلق:

"على شاكلتك! نعم! ان هذا الكلام لن يؤدي بنا الى شيء. لقد حولتنا عن الموضوع بما فيه الكفاية، أريد أن أعرف كيف عثرت على راشيل مرة ثانية؟ وكيف وصل بك الامر الى أن تطلبها للزواج؟ بل أهم من هذا اريد أن أعرف لماذا تقدم هي على مثل هذا الامر؟ إن هذا كله يرتبط بموضوع الطفلة، موضوع سارة! ما مشكلة سارة؟ لماذا تتردد على المستشفى؟ ولماذا يسمونها المقعدة؟"

وسحق جيمس كنفدوم بقايا السيكار ليطفئه، وقال:

"ألم تسأل راشيل هذه الاسئلة؟"

"إنني أسألك إياها؟ أو تفهم؟"

وهز أبوه كتفيه استهجانا، وقال:

"اذا كانت هي لم تستطع أن تشفي غلتك للمعرفة، فانني أخشى ألا يكون ذلك في طاقتي أنا أيضا."

"أبي، انني أحذرك!"

ونهض الأب على قدميه مرة ثانية، وقال:

"لا! أنا الذي أحذرك، يا جويل! ابتعد عن هذا الموضوع! لقد مضت عليك سنوات، وأنت تعامل هذا البيت بازدراء، ولم تكلف نفسك عناء السؤال عني أو عن صحتي، كل ما أطلبه هو أن تبقى بعيدا عن الموضوع، استمتع بوقتك مع الآخرين الذين تهتم بهم، أعتقد أنه يغيظك أن ترى راشيل تفضلني عليك، ولكن سوف تعتاد على ذلك."

"ان أمر راشيل لا يعنيك."

"على العكس، انني مغرم بها، انني أحبها كثيرا، ولقد أحببتها دائما، حتى عندما كنت تسمم عقلها ضدي."

ودمدم جويل بمرارة:

"ينبغي أن تعترف بأنه كان لذلك ما يبرره."

"ربما... انني أعترف... لم أكن دائما ذلك الخير الكريم، ولكن الزمن يتغير."

كان جويل يحس بألم شديد فوق جفنيه، وقال:

"أتفق معك أن الزمن يتغير، ولكنك أنت لا تتغير! ثم سأل:

"وماذا قلت لها عني؟"

وهز جيمس كتفيه وأجاب:

"قد لا تصدق يا جويل! بأننا نادرا ما كنا نتحدث عنك، مرت راشيل بأوقات عصيبة في السنوات الأخيرة، وإنني أعتزم أن أذلل لها كل الأمور."

جعل جويل يده تتخلل شعره، وعلق:

"كان بوسعك أن تذلل لها الأمور بدون أن تتزوجها."

وبدت ابتسامة ساخرة على وجه أبيه، وهو يقول:

"ماذا؟ وأترك الميدان مفتوحا أمامك، يا جويل! أوه، لا، إن الاتفاق الذي عقدناه أنا وراشيل لم يبق منه الا توقيع عقد الزواج."

عاد جويل الى شقته التي تطل على حديقة ريجنت بارك، وكان الصداع يدق رأسه بعنف اذ ترك منزل أبيه قبل أن تنهار سيطرته على نفسه تماما. وبلغ الغضب منه مبلغا لم يعهده في نفسه من قبل.

وقاد سيارته الى مكان الانتظار في الممر السفلي، واستقل المصعد الى الطابق العلوي، وعندما دخل شقته أجفل عندما وجد مصباحا لا يزال مضيئا في غرفة الجلوس، وأن امرأة شابة كانت ترقد على الأريكة الفرنسية المصنوعة من المخمل. كان صوته وهو يغلق الباب قد أيقظها، فرفعت رأسها بابتسامة تعبر عن الترحيب، وقالت وهي تمد ذراعيها الابيضين الممتلئين:

"جويل! حبيبي! خفت ألا تعود!"

وهبط جويل درجتين منخفضتين تؤديان الى وسط الغرفة، وقال وهو يحل أزرار سترته:

"ماذا تفعلين هنا، يا اريكا؟"

وارتفع حاجبا اريكا غراي الرقيقان في شيء من التقوس، وقالت توبخه بلطف:

"أهذا هو اللقاء الذي أنتظره منك، يا حبيبي؟ لا بد أن العمل الذي سافرت من أجله الى يوركشير لم يكن مرضيا كما كنت تنتظر."

وجاوزها جويل متجها الى المنضدة المتحركة للمشروبات التي كانت مستندة الى الحائط، وأخذ يعد لنفسه كأسا اجترعها قبل أن يقول:

"هل ميرون هو الذي فتح لك الباب؟"
وأجابت بجفاف:
"نعم منذ أربع ساعات! ما الخبر يا جويل؟ ألا يسرك أن تراني؟"
ونهضت من فوق الاريكة، ووقفت أمامه، وكان شعرها الكستنائي الداكن يتجعد بشكل أنيق حول رأسها الصغير، وكان كعبا حذائها يضيفان عدة بوصات الى قامتها الصغيرة التي لا تزيد عن خمسة أقدام. وتذكر قامة راشيل، كانت أكثر ارتفاعا، ولكنه سرعان ما طرح الفكرة بعيدا بشيء من الغضب والتنهد، وقال:
"آسف يا أريكا، أنا متعب تماما، أعاني من صداع شديد، ولا أريد سوى أن أستحم وأنام."
واقتربت منه ويداها مبسوطتان، تقول:
"أوه! يا حبيبي! هل أحضر لك شيئا، قرص اسبرين مثلا أو كوب ماء معدني فورا."
قالت ذلك وقد تشابكت أصابع يديها.
وهز جويل رأسه، وهو يقول:
"لا! لا! أشكرك! لا شيء.."
ولمس جبهته بيده، وهو يضيف:
"آسف! سامحيني!"
وصار لسان اريكا يسبر شفتها العليا، فقد أحست بشيء من القلق، وكانت تعرف أن أية لفظة غير محسوبة يمكن أن تشعل نارا كبيرة، وقالت وهي تتحسس عباءتها التي كانت قد ألقت بها على ظهر الأريكة عند وصولها:
"سأذهب، وسأطلبك بالهاتف غدا؟ هل أفعل؟"
نظر جويل اليها بقلق، وبدأ يحس بالازدراء لنفسه لذلك التصرف الذي بدر منه ازاءها بدون قصد، ولكنه لم يكن الآن في حالة تسمح له بأن يتصرف بطريقة لبقة، ومع ذلك كان في ظروف أخرى، يسعد بمؤانستها، ولم تكن اريكا ترهقه بأية تكاليف، اذ كانت تكفل نفسها، وكانت على قدر كبير من الذكاء، وكان يعرف أنها تتطلع الى زواجه في النهاية، ولم يكن يشعر بالضيق لذلك. اذ كانت مطالب عملها تتوازن مع مطالب عمله. ولم تكن تفكر في انجاب الاطفال... ولكن شيئا ما حدث فجأة، وبدأ جويل يثور على نمط حياته

القائم على الأنانية. وكان كل ما رآه في تلك الليلة عينين قاتمتين عاصفتين تحملقان فيه في كراهية بادية... كان ذلك خبلا وجنونا... ولكن هاتين العينين كانتا تلاحقانه. ومع ذلك هل من الخبل أن يريد الانسان من ابنته أن تحبه؟
لم يستطع أن يشرح شيئا من ذلك لاريكا، وتركها تفكر ما تشاء في سبب سلوكه غير الودي نحوها تلك الامسية، ووضعت العباءة على كتفيها وسارت الى الباب، وسار جويل خلفها ليوصلها:
"نعم، اطلبيني غدا، طاب مساؤك يا اريكا!"
"طبت مساء."

٤ - بيت جديد.. ملابس جديدة!

أخيرا نامت سارة، ومشت راشيل على رؤوس أصابعها خارج الغرفة، وأغلقت الباب، وكان الأمر قد احتاج الى بعض الوقت لأن ما حدث ذلك اليوم كان جديدا عليها، وارتفعت حرارتها بشكل ينذر بالخطر، لكنها أخيرا بدأت تستغرق في نوم هادىء... وسارت راشيل الى غرفة الجلوس حيث كان جيمس كنفدوم في انتظارها.

كانت الشقة الجديدة في عمارة تقع في أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من طريق آبي. كانت أرحب بكثير مما توقعت، ففضلا عن غرفة الجلوس الرحبة كان هناك مطبخ واسع وغرفتان للنوم، وحمام. والأثاث على درجة من الاناقة. وبدأت تدرك أن جيمس تحمل بالفعل الكثير من أجلها، وامتزج تعبيرها بالعرفان له بالجميل بشيء من الاحترام والوقار. وكان المنزل على مقربة من مستشفى سانت ماثيوز مما يسمح لها بأن تزور سارة عندما تدخل المستشفى وقتما شاءت.

كان جيمس كنفدوم يجلس على الاريكة المستطيلة عندما رجعت الى غرفة الجلوس، ونهض عندما رآها تدخل وأجلسها الى جواره، وهو يقول:

"تعالي، واجلسي. اسمحي لي أن أحضر لك مشروبا."

وأجابت وهي تجلس على حافة المقعد المريح:

"لا بأس!"

وأحضر لها شرابا ثم قال:

"التعب باد عليك يا راشيل! أعتقد أنك تفضلين النوم مبكرة."

وأومأت برأسها:

"كان يوما متعبا الى حد ما."

وأدركت أنه ينتظر منها شيئا آخر، فأضافت:

"لقد كنت كريما عندما انتظرتنا على المحطة، ودعوتنا

لتناول الطعام، سارة كانت فرحة."

وعلق جيمس، وهو يستلقي في مقعده، وينظر اليها عن كثب:

"لم أفعل الا الواجب، وبالمناسبة، في المطبخ مؤونة كافية. واعتقد أن سكرتيرتي قامت بذلك كما ينبغي."

وشكرته راشيل. وكان جيمس قد قرر أن يجعل منها امرأة تليق بأن تقدم الى الآخرين باعتبارها زوجته، وعلق بطريقة عارضة:

"أعددت الترتيبات لتزوري الصالون الرمادي خلال هذا الاسبوع، يا راشيل."

ورفعت راشيل بصرها، وقالت:

"الصالون الرمادي؟ ماذا يكون ذلك؟"

"الصالون الرمادي يا عزيزتي، محل متخصص في الملابس الجاهزة، تملكه إحدى صديقات جويل، نعم! اسمها اريكا غراي.. وستقوم بنفسها على خدمتك، إذا عرفت من أنت!"

"ماذا تعني؟"

"لا! أعني أنك خطيبتي."

كان صوته هادئا رزينا، وأكمل:

"ماذا ظننت؟ أخشى أن أقول انني قصدت اغاظتك، كما أغظتني.. لقد كتمت عني أنك رأيت جويل بعد أن التقينا في آخر مرة."

واحست راشيل أنها أشبه بذبابة وقعت في نسيج عنكبوت ماكر، وأحست بأنه كان من واجبها أن تخبره بزيارة جويل، ولكن ذكرى تلك الزيارة كانت لا تزال فجة لا تصمد الاختبار، وتجرأت على أن تسأل:

"وكيف عرفت بها؟"

"أخبرني جويل بنفسه."

"جويل؟"

"نعم! هل كنت تظنين أنه لن يخبرني؟"

تصورت أن جويل ربما يفضل أن يتجنب المواجهة المكشوفة مع أبيه وقالت في صوت خفيض:

"جاء منذ أكثر من أسبوع، ولكن الكولونيل لم يره. وكان يريد أن يرى سارة."

"واخبرته من ابوها ؟ أليس كذلك ؟"
"نعم !"
"لماذا ؟ هل الشبه الكبير بينها وبينه جعلك تفعلين ذلك ؟"
"أنا ! لا !"
كان من السهل أن تكذب لكنها لا توافق واضافت:
"لم يكن قد رأى سارة بعد عندما أخبرته".
وتقوس حاجباه الكثيفان، وقال:
"اذن، لماذا فعلت ذلك؟"
هزت رأسها وقالت:
"تشاجرنا مشاجرة عنيفة، كنت أريد أن يحس بصدمة الحقيقة، ونجحت".
"ولم تكوني تنوين أن تخبريني بذلك؟ على الاقل لآخذ حذري كما يقولون".
"لم يكن هناك متسع من الوقت بعد".
"لا ! أعتقد أنه لم يكن هناك... وسارة... بالطبع لا تعرف شيئا عن علاقتها بابني؟"
"لا !"
"حسنا... فقط أحب أن أوضح أنه لا ينبغي أن يخفي أحدنا سرا عن الآخر يا راشيل! ولا تنسي أنه بدون مساعدتي لن يكون أمامك من ملاذ الا اللجوء الى جويل؟ هل تريدين ذلك؟"
وأجابته وفمها يرتعش:
"بالطبع، لا ! انك تعلم أنني لا يمكن أن أفعل ذلك !"
وأومأ جيمس بيده ليفض الأمر وهو يقول:
"وإذن فلن نقول كلاما آخر في هذا، أعتقد أن موعدك مع لوريمر هو صباح الغد، أليس كذلك؟"
"نعم! نعم! في العاشرة".
"هل تحسين بشيء من الاضطراب؟"
"هل تحس أنت بذلك؟"
فأجاب:
"أشعر بشيء من القلق! ربما... ولكن لوريمر هو دون شك أكفأ رجل في ميدان تخصصه، وليس ثمة ما يدعو الى القلق..".
وبدأت راشيل تتحدث بشيء من عدم الثقة، فقالت:
"ولنفرض أن العملية فشلت".
"عندئذ سوف تستأنف سارة علاجها الحالي، وينبغي

لن تكوني أكثر تفاؤلا !"
وارتشفت راشيل ما بقي في كأسها، وقالت:
"سابذل جهدي".
ووضع الكأس الفارغة على رف الموقد، وقال:
"سأخرج... بإمكانك أن تنامي... وسوف أمر بك مساء قبل أن أسافر الى فرنكفورت وسيكون هذا آخر مؤتمر أحضره باذن الله".
كانت الساعة تشير الى التاسعة والنصف وكان الانهاك يجثم على كاهلها وأدارت زر التليفزيون بشيء من التعهد، وحاولت أن تتتبع المسرحية المعروضة، لكنها كانت تشرد باستمرار. وعندما انتهت المسرحية، وجاء شريط الأخبار فلم تكن تدري ما يعرض على الشاشة أمامها.

××××

كانت راشيل ترتعد، وهي تتذكر موجة الرعب التي لفتها عندما فتحت الباب لجيمس كنغدوم... وتعرف عليها في الحال، ورغم أنها لم تكن قد أخبرته بعد بموضوع سارة، فان الكولونيل ذاته قد تحمس وناقش قصة مديرة منزله الجميلة التي فقدت زوجها قبل أن يولد رضيعها..
ولم يضع جيمس وقتا في تقدير الموقف. بل وجد الفرصة ليتحدث الى راشيل، وليسألها عن السر وراء اختفائها، ورغم أن راشيل لم تكن ترغب في أن تتحدث اليه فانها لم تستطع أن ترفض ذلك لأنه كان ضيف مخدومها. وقررت أن تخبره بالحقيقة، وكان جيمس متعاطفا معها وخاصة عندما علم بمرض سارة. قال لها إنه يريد زوجة وأنه ينوي أن يعتزل ويخشى أن يعيش وحيدا دون صحبة امرأة، واقترح على راشيل أن تنظر في قبول الاقتراح اذا كانت تريد أن تؤمن حياتها وأن تجد السبيل لشفاء سارة...
كانت فكرة الزواج من جيمس كنغدوم تبدو أول الامر كاللعنة، ولكن المزايا التي سوف تجنيها بالنسبة الى سارة هدأت من مخاوفها. كانت مدينة لسارة بكل ما تفعل، وكانت تفعل كل ما في طاقتها لا من أجل أن تعود سارة الى

حالة صحية طيبة فقط، ولكن لتطمئن الى أن سارة لن تواجه الصراع نفسه من أجل الحياة كما فعلت هي من قبل، وكان جيمس هو جد الطفلة ويكن لها بعض المشاعر الفطرية، وقال إنهم سيقضون معظم السنة في بلاد اليونان، ولو سار كل شيء كما ينبغي فإن سارة ستعود في النهاية الى انكلترا لتنتظم في الدراسة في احدى المدارس هناك... وفكرت أنها سوف تنعم بكل ميزة يمكن أن يجلبها المال وهي ميزات بإمكان راشيل أن تفكر فيها بعدما قضت ابنتها سنوات حياتها الأولى في دار للأيتام، ولن تكون بحاجة الى أن تعمل إلا إذا رغبت هي حقا في ذلك، فكيف ترفض ذلك العرض؟

××××

ونهضت راشيل من جلستها فأطفأت التليفزيون، ودخلت غرفة نومها. كان هناك باب يوصل غرفتها بغرفة سارة تركته نصف مفتوح، واتجهت الى فتحة الباب وأخذت تنصت باهتمام، كانت سارة تتنفس بهدوء مما يعني أنها بدأت تشفى من معاناة ذلك اليوم.

وعلى غير ما تنتظر، نامت سارة نوما هادئا، واستيقظت على صوت غير عادي جاء من همهمة المرور على الطريق العام على بعد ياردات قليلة من المبنى حيث يقيم. وكانت شمس آذار / مارس تنفذ من خلال الستائر، وحدثت راشيل نفسها بالتفاؤل واعتبرت ذلك بشير خير. واستطاعت أن تسمع أصواتا من الغرفة المجاورة، وعلت شفتيها ابتسامة، كانت سارة على ما يبدو تحاول أن تستطلع غرفة نومها بدون أن توقظ أمها، وقالت وهي تنظر بعينين طارفتين:

"أنت كسولة، فلقد استيقظت قبلك بساعات.."

ونظرت راشيل بطريقة آلية الى ساعتها، ثم استرخت عندما رأت أن الساعة لا تزال الثامنة والنصف، وقالت:

"هل نمت جيدا، يا عزيزتي؟"

"انه فراش وثير يا أمي، هل سيكون لي فراش مثل هذا عندما نذهب لنعيش مع ذلك الرجل؟"

ورغم أن جيمس طلب اليها أن تناديه بكلمة "عمي" أصرت على أن تسميه "ذلك الرجل" مما سبب لراشيل بعض

الضيق، وأجابتها راشيل في إختصار:

"أعتقد أنك ستجدين في الحياة في الخارج شيئا جديدا.. (وأضافت) والآن اذهبي، واغتسلي بينما أقوم أنا باعداد ملابسك للذهاب الى المستشفى."

وبدأت سارة تنهض من الفراش ببطء وسألت بقلق:

"لن أضطر الى البقاء في المستشفى اليوم، أليس كذلك؟"

وهزت راشيل رأسها، وقالت:

"كلا، إنك اليوم ذاهبة فقط ليراك الدكتور لوريمر، تذكرين الدكتور لوريمر، أليس كذلك؟ قابلته آخر مرة كنا في لندن؟"

وسألت سارة:

"عندما كنا نقيم في الفندق الكبير؟"

وابتسمت راشيل ابتسامة خافتة، وقالت:

"تماما، والآن، هيا! اغتسلي!"

ودق جرس الهاتف، وأحست راشيل بأعصابها تتوتر، وهي ترفع السماعة، كان المتحدث هو سكرتيرة جيمس كنغدوم وطمأنتها راشيل أن كل شيء على ما يرام، وشكرتها لما تحملته من أجلهما، وأجابت السكرتيرة في أدب:

"حسنا يا سيدة غيلمور، إنه واجبي."

وأحست راشيل رغم ذلك أن السكرتيرة لم تكن راضية تماما عن الوضع. وخرجا الى المستشفى بعد الافطار.

كان الدكتور لوريمر، الجراح المكلف بحالة سارة، رجلا في أوائل الأربعينات من عمره يتمتع بمظهر يبعث الثقة في مرضاه، وكان يهتم بطريقة خاصة بالاطفال وأدركت سارة ذلك من زيارتها الأولى.

ورغم أنها لم تقابله إلا مرة واحدة من قبل سمحت له بان يفحصها دون أن تبدي أي اعتراض، ولم يستغرق الفحص وقتا طويلا وقدمت راشيل للطبيب فيما بعد سائر الوثائق اللازمة، بينما كانت سارة تلعب مع هيلغا، دميتها. واتخذت الترتيبات اللازمة لتدخل سارة المستشفى. وأحست راشيل بارتياح كبير عندما انتهت المهمة.

وحضر جيمس كينغدوم الى الشقة مرة ثانية تلك الامسية، وأخذت سارة تتحدث عن زيارتها الى المستشفى وعن الدكتور لوريمر بلطفه ورقته، وأحست راشيل بالارتياح لوجود الطفلة مما ساعد على تحاشي وجودهما على انفراد ولو لفترة،

ومع ذلك كان على سارة أن تذهب في النهاية الى مخدعها،
وعندما رجعت راشيل لتجالس ضيفها في غرفة الجلوس كان
يبدو عليها الارتياح التام، وساعدها على الجلوس في كرسي
مريح، وقدم اليها كأسا من الشراب، وقال:

"ألا ترين أن سارة تشعر بالاستقرار تماما، لن يكون الامر
صعبا كما نتصور!"

وخطر لراشيل أن الامر ليس كذلك تماما بالنسبة الى سارة،
ولكنها مع ذلك قالت:

"الأطفال يتكيفون سريعا، وهذه إحدى ميزات صغر السن."

وطقطق جيمس لسانه كعلامة على عدم الموافقة، وقال:

"إنك تتحدثين كأنك في أواسط العمر، إنني أعجب بشبابك
يا راشيل! ومن يدري فربما لا تزال أمامنا الفرصة ليكون لنا
أطفال ننجبهم سويا."

وتصلبت راشيل بعض الشيء، ولم تكن تستطيع أن تتحمل
الموقف، وقالت بارتباك:

"أوه، لا أدري."

ولم يكن جيمس ينصت اليها، وواصل الكلام:

"سأتغيب حوالي عشرة أيام، ولعل ذلك يكون وقتا كافيا تعتاد
فيه سارة على ظروفها الجديدة، ليس هنا فقط، وإنما في
المستشفى كذلك، وعندما أعود يمكن أن نتحدث عن ذلك
اطمئني فجميع الترتيبات اللازمة قيد التحضير."

وأومأت راشيل برأسها، وقالت:

"أعرف، فقد أخبرني الدكتور لوريمر."

"حسنا! وسوف يحرص على أن يزودك بالأخبار أولا بأول، هل
أنت مطمئنة اليه؟"

"نعم، وعندما تنتهي العملية؟"

"ستكون بلاد اليونان مكانا أمثل للنقاهة، واسترداد الصحة."

"ولكن... المصرف؟"

"فرنسيس ليس سيئا، يا عزيزتي، ويستطيع أن يتصرف."

"ولكن كم يطول ذلك؟ أنت تعرف يا جيمس، أنك أخبرتني."

"أخبرتك أنني كنت أتمنى أن يحل جويل محلي ولكنه رفض
وسوف يكون على فرنسيس أن يتحمل المسؤولية الآن، وإذا
سار كل شيء على ما يرام فربما تؤاتيني الفرصة ليكون لي
طفل على صورتي."

كان متحجر القلب فيما يخص العمل، وكانت راشيل تعرف
... ذلك من جويل منذ سنوات مضت، ومع ذلك كان من
... صعب تماما عليها أن تتصور نفسها أما لطفل منه.

وأفرغ جيمس كأسه، وصار ينظر اليها بامعان، وقال:

"وبالمناسبة، اتخذت الترتيبات لكي تحضر السيدة تالبوت
... هنا وتقيم معك خلال الفترة التي تقضيها سارة في
... مستشفى."

وقطبت راشيل، وقالت:

"... سيدة تالبوت، آه، مديرة المنزل التي تعمل في بيتك..
(وهزت رأسها وأضافت) ليس ذلك ضروريا."

"لا أتفق معك، فأنا لا أحب أن تقيمي هنا وحدك عندما لا
... أكون موجودا لاعنى بك."

"ولكن سارة ستقضي في المستشفى ليلة واحدة."

"ورغم ذلك أفضل أن أطمئن أنك لست وحيدة."

كان متصلبا لا يقبل المناقشة، ولم تجد راشيل ما ترد به،
ولكنها لم تستطع أن تمنع خاطرا خطر لها حول ما إذا كان
... جويل أية علاقة بهذا الاهتمام الواضح الذي يبديه برعاية
... شؤونها.

وفي الصباح التالي، قبل أن يطير جيمس الى فرانكفورت
... اتصل براشيل هاتفيا من المطار، وقال:

"... نسيت أن أخبرك، يا عزيزتي، أن الآنسة كلاي ستزورك هذا
الصباح لتصحبك الى محل الأزياء الذي أخبرتك عنه."

وكانت الآنسة كلاي تعمل سكرتيرة له، واعترضت راشيل:

"ولكنني لا أريد أية ملابس أخرى."

"... اتركي لي تقدير ذلك. وأرجو ان تسمحي لي بان اجعلك
... ترتدين ما يليق بمكانة أسرة كنغدوم."

"ولكنني لست بعد عضوا في أسرة كنغدوم، يا جيمس."

"سوف تصبحين كذلك عما قريب، يا راشيل. أرجو أن
... تستجيبي لطلبي، وإنني أتطلع الى أن أرى التغيير عند
... عودتي."

لم تعط راشيل وعدا قاطعا عندما وضعت السماعة، وكالعادة
لم يكن هناك جدوى في محاولة التوضيح بأنها تفضل أن تبقى
مستقلة حتى يتم الزواج، ولكن اذا صممت الآنسة كلاي أن
... تأخذها الى الصالون الرمادي، فان ما بقي معها من النقود

على ضالته سوف ينفذ اذا ما حاولت أن تشتري ملابس جديدة ·

كانت ليديا كلاي امرأة في نهاية العقد الرابع من عمرها ، عملت في مؤسسة كنغدوم منذ كانت لا تزال آنسة صغيرة، ولأنها كانت سكرتيرة المدير ، انعكس ذلك على سلوكها الذي كان يتسم بالتحديد والتصميم·

وصلت ليديا في سيارة أجرة لتصحبهما الى السوق، وكانت السيارة في الانتظار عندما غادرن المبنى، وكان الصالون الرمادي يقع في زقاق يتفرع من شارع ريجنت، ولم يكن في مظهره من الخارج ما يجتذب الزائر اليه، ولكن ما أن يجتاز الزائر الباب الزجاجي الدوار حتى يحس في الحال بشيء من التوقع الغامض الذي يثير الاهتمام، وكانت هناك ستائر من الشيفون الوردي والقرنفلي تحجب كل شيء·

ولم تكن الملابس أو الفساتين معلقة كما تعودت راشيل من قبل في محلات أخرى· أما سارة فقد كانت تنظر حولها باهتمام وهي ترتدي سروالها الجينز وسترتها المصنوعة من الفراء ذات القلنسوة، بينما تتدلى هيلفا من يدها كالعادة، وقالت في صراحة الأطفال:

"المحل فارغ من السلع، يا ماما· هل حدثت تصفية؟"

وانتفضت شفتا الآنسة كلاي عندما سمعت ذلك، وكانت إحدى البائعات تجتاز المكان، فأخفت الانسة كلاي شعورها بدرجة كافية وقالت:

"صباح الخير·"

"أوه، صباح الخير، آنسة كلاي·"

وواصلت السكرتيرة كلامها مع البائعة بشيء من اللطف:

"الآنسة غراي، هل هي موجودة؟"

وأجابت البائعة:

"موجودة بالفعل· سنسير في هذا الاتجاه·"

كانت راشيل تتوقع الآنسة غراي على شيء من الجمال المهيب· ولكن اريكا غراي كانت ضئيلة الجسم، وعندما ظهرت بأناقتها في بذلة رمادية محكمة على جسمها وشعرها الذي يميل الى السمرة جعلت راشيل تشعر في أعماقها أنها طويلة القامة تعوزها البراعة، فضلا عن أن النظرة السريعة التي ألقتها على ملابس راشيل كانت مهينة لها، وحيتها بشيء من البرود، وهي تقول:

"أنت إذن السيدة غيلمور؟ أخبرني السيد كنغدوم بقدومك، أهلا بك· اسمي اريكا غراي·"

ونظرت الانسة غراي نظرة خاطفة الى الانسة كلاي ثم وقع بصرها على سارة، وقالت:

"هذه ابنتك يا سيدة غيلمور؟"

وأومأت راشيل برأسها، وأجابت:

"نعم، هذه سارة·"

وتقوست شفتا اريكا الرقيقتان الى أسفل، وقالت:

"أهلا، يا سارة!"

ولكن سارة لم ترد التحية، وأخذت تحدق النظر في شيء من العناد، ولاحت آثار غضبة بسيطة على جبين اريكا الأملس، وكان من الواضح أنها أخذت بالشبه الواضح بين الطفلة وأسرة كنغدوم، ولحسن الحظ تذكرت راشيل أن جيمس كان من الاسرة ذاتها·

وقالت اريكا وفي نبرات صوتها ما يدل على أنها تقصد توجيه اهانة مقنعة الى راشيل:

"ولكنها لا تشبهك كثيرا، يا سيدة غيلمور، أليس كذلك؟"

واستجمعت راشيل كل ما بقي لديها من آثار الثقة بالنفس، وقالت:

"لا يا آنسة غراي، انها لا تشبهني، والواقع أنها تشبه جدها الى حد كبير·"

قالت ذلك دون أن تبالي بالطريقة التي تفسر بها الآنسة غراي ذلك·

وجلست الانسة كلاي لا تتكلم الا قليلا، وقد تجاهلت سارة تماما· ودام صبر سارة بعض الوقت فجلست في كرسيها وقد شغلها التغيير الذي كان يحدث في مظهر أمها، ولكنها بعد أن انقضت الدقائق الى الساعة وامتدت الساعة الى الساعتين بدأ يعتريها القلق، وصارت تسأل:

"كم من الوقت يطول بقاؤنا هناك؟"

ولم يكن بوسع راشيل أن تجيب على سؤال ابنتها، وذلك بسبب انشغالها كلية مع الآنسة غراي، وفضلا عن ذلك مضى عليها وقت طويل لم تكن تكلف نفسها فيه مشقة العناية بمظهرها أكثر من أن تبدو نظيفة مهذبة، ولاح لها رغم مشيئتها أنها كانت تستمتع بهذه الخبرة الجديدة·

وعندما خرجت من احدى المقصورات كانت ترتدي ثوبا من القطيفة في لون الياقوت الازرق له صدر منخفض ضيق، وأكمام طويلة حبكت على زنديها قبل أن تتدلى باتساع عند الكوع في زي يشبه ما كان سائدا في العصور الوسطى، عند ذلك سمعت صوت رجل في القاعة الخارجية، وقبل أن تجد الوقت لتصلح من شأنها خطا الرجل بخطوات واسعة من خلال الستائر، ووقف في مواجهتهن، وكان الرجل هو جويل، وتركت اريكا كل ما في يديها في الحال، وذهبت للترحيب به:

"يا حبيبي، ماذا تفعل هنا؟"

ونظر جويل من فوق رأس اريكا الى راشيل، واندفع الدم الى وجنتيها من تلك النظرة، وقال في شيء من السخرية:

"أوه، لقد ظننت أنه من المناسب أن ألقي نظرة على تلك التي ستغدو زوجة لأبي."

فراشة المحبة

٥ - آيس كريم

كانت اريكا الشخص الوحيد الذي لم يبد الدهشة لحديث جويل، ولكنها كانت عندئذ منهمكة في اختيار الأزياء المناسبة لراشيل وفقا للتعليمات التي تلقتها من جيمس كنغدوم، وكان الأمر بالنسبة اليها عملا يتطلب الانجاز، أما الآنسة كلاي فقد كانت تنظر بشيء من عدم الموافقة، وأما سارة فكانت عابسة مقطبة، وبالنسبة لراشيل... حسنا، خطر لها وهي تحاول أن تستعيد رباطة جأشها أن جويل أراد أن يثيرها، ونجح في ذلك.

والتفت جويل من اريكا الى سارة، وقال وهو ينحني تجاهها ليقترب منها:

"وما رأيك في ملابس ماما الجديدة؟"

وجعدت سارة أنفها، وزمت شفتيها وحدقت في وجهه، وابتسم ابتسامة عريضة انعكس أثرها بطريقة تثير الدهشة فيمن حوله فقد بدا أقل عمرا بكثير مما هو، وعلق بشيء من الحدة:

"هذا وجه جميل لطيف... والآن أريده أن يعبر عن الغضب والقبح."

وزمت سارة شفتيها بطريقة أكثر تشددا، ولكن شيئا ما في ابتسامته جعلهما تتذبذبان، وقالت:

"ابتعد عني.. أنا لا أحبك... قالت ذلك عندما لم تستطع أن تحتفظ بالتكشيرة لوقت أطول، ولم تملك الآنسة كلاي إلا أن تطقطق لسانها في شيء من الاستنكار.

ولأول مرة نطقت راشيل، وقالت:

"سارة!"

ورفع جويل بصره اليها بشيء من الاستخفاف، وقال ساخرا:

"حسنا! حسنا! أنت ذاهبة الى حفل راقص، يا سندريلا!"

وامتقع وجهها، واستدار جويل ثانية الى الطفلة، وأمسك براحة هيلفا الطليقة، وقال:

"ألا تشعرين بالملل، وأنت تجلسين هنا تتفرجين على معرض الأزياء، أعرف مكانا يباع فيه الآيس كريم، ألا تفضلين أن تأتي معي لنأكل الآيس كريم حتى تنهي ماما مهمتها؟"

وجذبت سارة هيلغا من يده، وهي تقول:

"لا!"

وألح عليها:

"هل أنت متأكدة؟ إنهم يبيعون الستيك المصنوع من عصير الفواكه المجمد كذلك!"

وردت سارة:

"أنا لا أحب الستيك."

ولكن صوتها لم يكن يبدو مقنعا على الاطلاق، وعندئذ انفجرت راشيل قائلة:

"كف عن محاولة رشوتها، يا جويل... اجلسي يا سارة... لن نتأخر كثيرا. وبعدئذ سوف أشتري أنا لك الآيس كريم. سارة لا تريد أن تذهب معك، يا جويل؟"

ووجه انتباهه الى سارة، وأخذ يسألها:

"حقا يا سارة! أنت لا تريدين أن تذهبي معي؟ ألا تحبين أن تخرجي معي للنزهة في سيارتي؟ إنني أحب أن أرسم لك صورة."

"صورة لي؟"

وأخرج من جيبه ورقة مطوية من أوراق الرسم، وأشار الى سارة أن تقترب منه، وفتح الورقة، وترددت سارة لحظة.

ونظرت الى أمها تطلب الموافقة، ولكن راشيل لم تستطع أن تستجيب. كانت سارة مرسومة بدقة وعناية، ولم تكن راشيل تعرف اللعبة التي أراد أن يلعبها أو ما يريد أن يصل إليه، ولكنها كانت تحتقره لاستغلاله سارة بتلك الطريقة.

أما عن سارة فلم تكن تدري شيئا عما يدور في الخفاء، وكانت الكراهية التي احست بها أول الأمر، بدأت في الذبول تحت وطأة ميلها الفطري للاستطلاع وأقدمت لتلقي نظرة على الورقة التي كان يمسك بها، وصاحت بالدهشة:

"إنها أنا... أليس كذلك؟"

أومأ جويل بشيء من التسامح:

"هي ... حبك؟"

وجذبت سارة الورقة من يده، وركضت الى أمها

تعرض الصورة النصفية المرسومة بالفحم والتي تبرز رأسها بكتفيها بشيء من الزهو وكان من الواضح أن جويل رسمها من الذاكرة، كان الرسم ممتازا ككل أعماله. وتوترت عضلات معدة راشيل واحتاجت الى مجهود كبير لتبدي الموافقة، وقالت:

"إنها... إنها جميلة جدا، يا حبيبتي!"

وأخذت سارة الصورة مرة ثانية وصارت تقبلها وهي معجبة بها، وقالت:

"شعري يبدو جميلا، أليس كذلك؟ لكن كنت أفضل أن أكون مبتسمة!"

وعلق جويل في مرارة:

"ولكنك لم تكوني باسمة في وجهي عندما رأيتك أول مرة."

ونظرت اليه في ثبات وكأنها تتفحصه، وسألته:

"لو تركتك ترسمني مرة أخرى، هل ستجعلني أبتسم؟"

وتدخلت راشيل، وقالت:

"سارة! السيد كنغدوم لديه أعمال كثيرة، وأعتقد أن لديه أعمالا أهم من مجرد رسم الفتيات الصغيرات."

وقال يعترض على كلامها:

"على العكس! ليس أحب الى نفسي من أن أرسم سارة مرة ثانية، هذا إذا وافقت على أن تأتي لتناول الآيس كريم معي، لأنني لا أحب أن آكل الآيس كريم وحدي."

وعضت سارة على شفتها السفلى بينما تحدثت اريكا بلهجة بدا فيها شيء كبير من الرقة:

"لكنني أعتقد كما أخبرتني أن لديك محاضرات تلقيها هذا الصباح!"

وهز جويل كتفيه، وقال:

"قررت أن أتغيب اليوم."

وصدرت عن اريكا بعض ايماءات تدل على قلقها، وقالت:

"لا تكن مازحا، أعتقد أنك لم تحضر هنا فقط لتدعو سارة الى الآيس كريم."

وضاقت حدقتا عينيه، وقال ساخرا:

"ماذا، يا اريكا؟ هل تريدين آيس كريم أنت أيضا؟"

واستدارت اريكا بعيدا عنه في شيء من الاشمئزاز، وبدت سارة ممزقة بين رغبتها في أن ترضي أمها

وبين الاغراء، ليس فقط بتناول الآيس كريم بل أيضا بأن ترسم لها صورة أخرى. وهمست بصوت خفيض يمتزج بالشك:
"مامي، هل تغضبين اذا ذهبت مع السيد كنغدوم؟"
وتجنبت راشيل نظرة جويل، وسألت بطريقة متقطعة:
"هل هذا هو ما تريدينه؟"
وأجابت سارة في شيء من التردد:
"لمدة قصيرة فقط، لن أتأخر. هل أذهب؟"
ورفعت عينيها الى جويل، الذي أجاب، وهو يهز كتفيه:
"يمكنك أن تتغيبي كما تشائين. أعرف عنوان سكنك."
كانت راشيل في موقف صعب للغاية، وكلاهما يعرف ذلك. ودمدمت بطريقة تنقصها الكياسة:
"حسنا ! سارة، أرجو أن تسلكي بطريقة سليمة، ولا داعي للثرثرة!"
كانت سارة تعرف ما يعنيه ذلك، وفهمت أنها لا ينبغي أن تتحدث عن مرضها وابتسمت، ونظرت راشيل إليها. ومد جويل يده إليها فأمسكت بها وخرجا سويا، وكان الجو قد أصبح متوترا بدرجة واضحة بعدما خرجا.
وعلقت اريكا وهي تشد بقسوة سحابة رداء من المخمل:
"لم اكن أدري أن جويل يعرف ابنتك الى هذه الدرجة."
وخطت راشيل خارج الرداء، وهزت رأسها، وقالت في شيء من التسرع:
"هو لا يعرفها بهذه الدرجة، قابلها مرة واحدة من قبل."
وردت اريكا وفي صوتها نغمة الشك:
"ومع ذلك يرسمها من الذاكرة، لم أكن اظن أنها تبقى في ذاكرته الى هذا الحد... بالطبع هي سوف تصبح أخته من أبيه عندما تتزوجين جيمس كنغدوم، أليس كذلك؟"
وتنشقت راشيل نفسا عميقا، وقالت:
"أعتقد انني شاهدت قدرا لا بأس به من الثياب اليوم، هل يمكن أن ترسلي لي البذلة الخضراء باللون اللوزي، والفستان الأرجواني والسترة."
"إن الاوامر التي تلقيتها تقضي تزويدك بكسوة كاملة، وأعتقد أنك لا تريدينني أن اوذي مشاعر السيد كنغدوم."
ونظرت راشيل الى اريكا ثم الى وجه الآنسة كلاي المتخشب، ثم عاودت النظر الى اريكا، لم تكن ثمة

فائدة ترجى من تصعيد الموقف معهما، بينما جويل هو المسؤول عن كل شيء حدث، ثم إنه إذا كانت علاقته باريكا تعني بالفعل المبلغ الذي كانت اريكا توحي به، فمن حقها تماما أن تعبر عن استيائها.
ونظرت حولها تبحث عن السروال والسترة الصوفية اللذين حضرت بهما وقالت:
"فعلي ما تعتقدين أنه الأفضل. ولكن لو سمحت، فانا تعبت اليوم."
وتبع ذلك صمت عميق استجمعت اريكا نفسها خلاله، وقالت:
"سوف أطمئن على أن جميع الملابس المناسبة تم توليفها، هل أرسلها الى منزل السيد كنغدوم؟"
وهزت راشيل رأسها، وقالت:
"كلا! لي شقتي، سأعطيك عنوانها، والأفضل أن ترسليها لي على هذا العنوان."
وردت اريكا بأدب وهدوء للمرة الثانية:
"حسنا يا سيدة غيلمور."
وسألت راشيل بشيء من الاحباط:
"هل تعرفين أين أجد سروالي وسترتي الصوفية؟"
ونظرت اريكا حولها، ثم هزت كتفيها، وقالت:
"إنني أقترح أن تلبسي شيئا أكثر أناقة يناسب المدينة!"
عندئذ حدقت راشيل ببرود، ثم استدارت بعيدا، وقالت:
"أشكرك، ولكنني أفضل أن أرتدي ملابسي لأطول فترة ممكنة."
وخرجت مع الآنسة كلاي بعدما ودعتا اريكا، ولم تستطع راشيل أن تمنع خاطرا قاسيا خطر لها بأن جيمس قصد عن عمد أن يبعث بها الى ذلك المكان لتعرف ان عاجلا أو آجلا بالعلاقة بين اريكا وجويل.
كان يظن أنها ما زالت تحتفظ ببعض المشاعر تجاه جويل، إنها تحتفظ حقا ببعض المشاعر. ولكن ليست تلك التي تستحق أن يأرق بسببها.
واستقلت الآنسة كلاي سيارة أجرة، وأخذت راشيل تتسكع في شارع ريجنت تتفرج على الواجهات، وذكرها ذلك بأيام التلمذة، تلك الايام التي لم تكن قد عرفت فيها جويل بعد.

لم تتمتع راشيل بطفولة سعيدة، اذ غدت يتيمة قبل أن تصل الى السن الذي تستطيع فيه أن تتذكر أبويها، وتربت في أحد بيوت الاطفال حيث يكون إشباع الحاجة الى المحبة والحنان تاليا لمرحلة الاهتمام بالواجبات العادية للمعيشة.

كان لها أصدقاؤها، وكانت هناك فترات استمتعت فيها بالسعادة، ولكنها لم تبدأ تحس بما تشعر به الفتيات في سنها عادة قبل أن تصل الى السن الذي استطاعت فيه أن تعتمد على نفسها، ولما أعطيت لها منحة دراسية، استطاعت أن تجد غرفة في أحد الأقسام الداخلية، وانتظمت في كلية ماكسويل للتصميمات الفنية والحرف وعرفت باستمرار بتذوقها للألوان. وأمضت حوالي تسعة شهور في الكلية عندما جاء جويل كنغدوم لالقاء محاضرات على طلابها.

وجذبت راشيل اهتمامه منذ اللحظة الاولى، في البداية رفضت أن تكون لها به أية صلة خارج الكلية، وصممت على ذلك رغم أن الطالبات الأخريات كن يعتبرن ذلك جنونا منها، ولكن ذات مساء وقف خارج الكلية ينتظرها وكان المطر ينهمر بشدة، ولم تجد بدا من أن توافق على أن يوصلها بسيارته الى بيتها، ومنذ ذلك الحين صار ينتظرها كل مساء، وسمحت له أحيانا أن يصطحبها لتناول العشاء وأدركت الآن أنها كانت على خطأ عندما ظنت أن بإمكانها أن تلهو مع رجل مثل جويل بدون أن تحترق أصابعها، ولكن كان كل شيء يبدو غاية في البساطة إذ ذاك.

كان جويل يبدو جذابا للغاية ووقعت في حبه قبل أن يمضي وقت طويل دون أن تدري ذلك، وقال لها جويل أيضا إنه يحبها، ورغم أنها كانت تعرف عندئذ أنه ليست له نية الزواج ظنت أنه عندما يقع ذلك الحادث السعيد فسوف تغدو زوجته.

وبدأت تدرك الآن أنها ساذجة وغبية الى حد بعيد، لم يكن الزواج أحد مشروعات جويل في يوم من الأيام. وكان ينبغي أن تأخذ حذرها عندما عرفت آراءه حول الأطفال، تكلم كثيرا في تلك الايام عن أناس يعرفهم، ويرى أن الاطفال جلبوا المذلة لحياتهم، وكان يأسف للأزواج الذين يضحون بشبابهم من أجل تربية أبنائهم الذين لا يلبثون أن يكبروا ويهجروا الآباء ليعيشوا حياة خاصة بهم. وكانت راشيل تتظاهر بالموافقة بينما هي في قرارة نفسها تعلل تلك القسوة

بسبب حرمانه من حنو الأمومة في طفولته، فقد ماتت أمه وعمره بضعة أشهر، وكانت تعتقد أنه إذا ما تم الزواج بينهما سوف يسعى لانجاب الاطفال مثلها تماما.

وصارت تمضي وقتا طويلا في مسكنه، وتعرفت على خادمه هيرون، وبدأت تعتاد المكان.

كان جويل يعاني من حالة صداع نصفي مستمر يعاوده في رأسه، ولم تكن النوبات تحدث على فترات متقاربة. وفي إحدى الأمسيات التي كان هيرون قد استأذن فيها بالانصراف، حضرت راشيل الى المسكن، ووجدت جويل شاحبا يتصبب عرقا، ومع ذلك كان مستغرقا في إكمال لوحة لأحد المعارض التي ستقام خلال يومين.

واقنعته راشيل بأن اصراره على العمل، وهو في تلك الحال، يعتبر خبلا، وأنه لا يمكن أن يأتي إنتاجه بالدرجة المطلوبة وعليه أن يذهب الى الفراش ليسترخي ويستريح.

واقتنع في النهاية بأن يفعل ذلك شريطة أن تبقى معه، تبقى في مسكنه ولا تعود الى بيتها قبل أن يفيق ليوصلها، وتوجست راشيل أول الأمر ولكنها وافقت بعد أن وجدته في حالة من الخوار لم تكن تتوقعها، وتركته ليستريح وبقيت هي في غرفة الجلوس.

ولم تكن لتغفر له أو لنفسها قط ما حدث إذ كان شيئا ليس في الامكان تجنبه.

وفي اليوم التالي اكتشفت بالضبط كم كان ذلك الذي حدث شيئا مهما لجويل، وعوضا عن أن يعتذر عما حدث بدا أنه يعتبره مرحلة من مراحل التطور الطبيعي للعلاقة بينهما، ولم يحاول أن يشير الى موضوع الزواج كعلاج لما بدر منه.

وشعرت راشيل بأنها تحطمت وتجنبته لأكثر من أسبوع عانت خلاله عددا من الاتصالات الهاتفية كانت في أول الامر تتخذ صيغة الالحاح، ولكنها تطورت الى سباب غاضب بسبب مراوغتها له، وأخيرا وافقت أن تقابله وتواجهه بحقيقة مشاعرها، كانت مقابلة رهيبة بدأها جويل بالتوسل اليها وانهاها بأنه لم يكن بعد مستعدا لأن يضحي بحريته من أجل آداب المجتمع وتقاليده، وطلب اليها أن تكون متعقلة وراشدة وناضجة وأن تساير الأفكار الجديدة التي تدمغ العذراوات بالرجعية والتخلف، كان كل ما فعله أن أعطاها درسا في التحضر!

وتبادلا ألفاظا قاسية ومؤذية شعرت راشيل بعدها بالأسف المرير لذلك، ولكنه قضى على ما بقي لديها من مشاعر تكنها نحوه.

عند ذاك وبعد ثلاثة أسابيع مضت، اكتشفت أنه كان عليها أن تدفع ثمنا آخر تكفر به عن تلك الليلة الطائشة، كانت حاملا، وبلا مال ومع ذلك صممت على ألا تطلب من جويل أية مساعدة.

××××

وأفاقت راشيل من تلك الافكار واستجمعت قواها، وابتعدت عن المكان، وجاءتها الخواطر حول سارة وأين ذهبت مع جويل؟ ترى هل تتعلق سارة به؟ وماذا يقول جيمس كنغدوم في ذلك؟

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة بقليل عندما وصلت راشيل الى مسكنها، ولم يكن هناك أثر للسيارة التي كان جويل يقودها يوم حضر الى لانغتويت. ودخلت الشقة، وخلعت سترتها، وذهبت لتعد لنفسها بعض القهوة لتشغل الوقت، عندما قرع الجرس. وذهبت لتفتح الباب، وهي تحاول أن تهدىء من روعها.

ودخلت سارة الى الشقة بشيء من الجلبة وهي تمسك بدميتها هيلغا في إحدى يديها بينما تلوح في يدها الاخرى بإحدى أوراق الرسم. كانت عينا راشيل تتركزان على الطفلة ولم تبرحاها الا لحظة وقعتا برغم إرادتها على الرجل ذي العينين الضيقتين الذي كان يقف بسخرية في المدخل ينظر اليها بشيء من الاصرار الغامض، وعلق وهو يستند على دعامة الباب قائلا:

"ها هي سارة سالمة آمنة كما ترين، هلا دعوتني للدخول؟"

كان من العسير عليها أن تركز انتباهها، اذ كانت سارة تشد يدها بقوة تريد أن تريها ما أحضرته معها، وقالت في شيء من التعثر:

"هل هناك ما يحملني على أن أدعوك للدخول؟"

"لا! ولكن هل هناك ما يحملك علي ألا تدعوني؟"

قالها جويل بحدة ودلف الى غرفة الجلوس.

واضطرت راشيل أن توجه كل انتباهها الى الطفلة عندئذ، وأخذت الرسم الذي كانت سارة تقدمه اليها، وأحست بأن قلبها ينبض باضطراب وهي تنظر الى الصورة التي رسمها جويل؛ كانت موهبته في الرسم فوق الشك. وكانت راشيل قد أبدت إعجابها بعمله، وبسهولة اندماجه في ألوانه. ولكن صورة سارة كانت تختلف بطريقة ما، وحاولت أن تقنع نفسها أن ذلك الشعور ناشيء عن حساسية خاصة لأن الصورة تمسها عن كثب، ولأنها تعرف نقطة الضعف في نسب سارة مما زاد من حدة الموضوع. ولكن المشكلة كانت أكبر من ذلك. ولو أتيح لها أن تعرف الامر بطريقة أفضل لعرفت أنه هناك مشاعر حقيقية وراء كل خط من خطوط الصورة، ولم يكن باستطاعتها أن تجازف في ماهية تلك المشاعر.

وخاطبت سارة أمها تعبر عن سعادتها:

"انظري... إنني أبتسم!"

وضحك جويل ضحكة خرجت من أنفه، وقال:

"السبب وراء ذلك هو كمية الآيس كريم الضخمة التي أكلتها."

قالها وهو يستلقي على الأريكة دون استئذان.

وتركت سارة أمها وراحت نحوه وقالت:

"وفي أي حال، فأنت أيضا أكلت واحدة."

"لكنها لم تكن كبيرة مثل التي أكلتها أنت."

"كان بإمكانك أن تأكل واحدة كبيرة. كان لذيذا رغم كل شيء. (ثم سألته) هل صحيح أن ذلك الرجل يقوم بطهو جميع طعامك؟"

وانتفض رأس راشيل الى أعلى، وألقت بالصورة على منضدة مجاورة، وسألت:

"أي رجل؟ أين كنت يا سارة؟"

"ذهبنا الى منزل جويل... العالي في السماء... وصعدنا في المصعد الذي ذهب..."

وقاطعتها راشيل وهي في حالة من الروع:

"هل أخذتها الى مسكنك؟"

ونظر جويل اليها بعينين قاسيتين، وقال:

"ولم لا؟ ألم تذهبي أنت الى هناك مرارا؟"

واتسعت حدقتا سارة، وسألت:

"صحيح يا مامي؟ ذهبت هناك فعلا؟ ورأيت كل الغرف؟"
"نعم!"
قالتها راشيل باختصار ولم تكن تستطيع أن تنكر، وأدركت بوضوح أن جويل كان يبين لها كيف يستطيع بسهولة أن يدمرها، ولشد ما كان مقتها له بسبب ذلك.
وبدأ يتحدث الى سارة:
"كنت أنا وأمك صديقين منذ سنوات، قبل أن تولدي."
وسألته سارة:
"هل كنت تعرف أبي؟"
كانت سارة قد بلغت حدا من الاثارة، ولكن راشيل بدأت تضيق بالموقف، وتدخلت لتضع حدا لما يدور، وقالت:
"بالطبع، لم يكن يعرفه. سارة، حان وقت الطعام، قولي وداعا للسيد كنغدوم، واذهبي لتغسلي يديك، سأعد لك بعض الحساء، وسيكون جاهزا خلال خمس دقائق."
وبدا على سارة أنها أصيبت بشيء من الاحباط، واتجهت نحو الباب، وقالت وهي تستند على المقبض:
"وداعا، يا جويل."
وابتسم جويل، وقال:
"الى الملتقى، يا سارة."
وانصرفت سارة، ونظرت راشيل اليه ببرود، وقالت على مضض:
"اعتقد من واجبي أن أشكرك على عنايتك بسارة."
ونهض جويل على قدميه، وقال:
"إذا كنت لا تريدين ذلك فلا داع، استمتعت بصحبتها، إنها طفلة ذكية، ولقد وجدت صحبتها مبعثا للاثارة."
وصمت برهة وقال:
"أريد أن أراها ثانية."
وخرجت من بين شفتيها.. دون أن تفكر جيدا فيما تقول عبارة:
"لن تستطيع."
وعندما رأت صرامة ملامحه، حاولت أن تجد الأسباب لتقنعه، فأضافت:
"أرجوك يا جويل أن تحكم عقلك! لا داعي لجعل الامور تسير الى الأسوأ."

وسأل بقسوة:
"أليس من حقي أن أطلب معرفة ابنتي؟"
كان القميص الحريري الثقيل الذي يلبسه منفرجا يكشف عن حنجرته، وكان يلبس سترة فاتحة اللون من قماش قطني متين وسروالا أزرق مضلعا. وكان يقف ملاصقا لها بحيث بدأت تتنسم رائحته، وأضاف:
"ألا تعتقدين أنك مدينة لي بالقليل من وقتها؟"
وأجابت على الفور:
"أنا لا أدين لك بشيء. إنك تأخذ ما تريد.. إنك لا تنتظر حتى تطلب."
وكان لا بد لها من السقوط في ذلك العناق المؤثر الذي اكتسحها كالسيل.
"مامي؟"
كانت هذه الصيحة الرقيقة التي انبعثت من سارة تعبيرا عن الاندهاش هي التي أعادت راشيل الى صوابها، وجذبت نفسها بعيدا عن جويل، واتجهت نحو الطفلة، وهي تصلح من شعرها بأصابع مرتعشة، وتشد السترة الصوفية على أسفل ظهرها، وقالت بشيء من الارتجاف:
"إذن أنت هنا يا عزيزتي..... هل غسلت يديك؟"
وزمت سارة شفتيها، وحدقت بعبوس الى حيث كان يقف جويل خلف أمها، يصلح من شعره بيديه.
وسار جويل نحو الباب قائلا بهدوء:
"سوف أراك قريبا يا سارة، وداعا يا راشيل."
ولم تحر راشيل جوابا، إذ لم تكن تثق في قدرتها على الكلام، وكان كل ما تشعر به عندئذ أنها تود لو انقضت عليه. بدا لها كما كان يبدو دائما، الطباع نفسها والسلوك نفسه بكل أسف.
وانغلق الباب خلفه، وحولت سارة انتباهها الى أمها، وقالت بحدة ذهنها المعهودة:
"لا أعتقد أن ذلك الرجل، والد جويل، يحب أن يراك هكذا مع جويل وحتى أنا لا أحب أن أراك تفعلين ذلك، إنك أمي أنا، ولست أمه هو."
واحتضنت راشيل طفلتها بين ذراعيها، وعانقتها بقوة. وتمنت يائسة لو كان الامر بتلك البساطة. تمنت لو أن

الصراع الذي كان عليها أن تواجهه كان مجرد صراع غيرة طفلة على أمها.

٦ - الصفعة

كان المساء التالي موعد دخول سارة المستشفى للعلاج. وكان المقرر أن تمضي ليلة واحدة كالعادة. لكن راشيل قررت ألا تتصل بالسيدة تالبوت بالرغم من وصية جيمس، وبغض النظر عن أي شيء آخر فهي لم تكن تعرف تلك المرأة جيدا، فضلا عن أنها لم تكن مهيأة للتعامل مع غرباء في مثل تلك الظروف.

وخلال فترة الصباح وصل رسول من "الصالون الرمادي" محملا بصناديق الثياب والأحذية والملابس الداخلية التي ارتأت اريكا غراي أنها لازمة لكسوة المرأة التي ستغدو زوجة جيمس كنغدوم. وأتاح ذلك لسارة على الأقل وقتا مبهجا تفتح فيه الرزم وتخرج الفساتين وتدور بها في غرفة نوم راشيل وقد جعلت الواحد منها تلو الآخر يتدلى أمامها موازيا لقامتها.

وكانت الفكرة بأن يشتري لها رجل، أي رجل، ملابسها شيئا بغيضا بالنسبة اليها.

لكن راشيل لم تكن قادرة على إخفاء اعجابها بكل تلك الملابس. وبدلت سروالها وسترتها بقطعتين من القطيفة القطنية المضلعة بلون أخضر فريد وبلوزة لها لون أرجواني فرح.

كان التحول الى هذا الزي الجديد شيئا يبعث على الرضى، وعجبت بطريقة ساخرة لما يمكن أن تصنعه الثياب في مظهر الانسان، فقد بدت بالفعل أصغر سنا بكثير بل بدت كذلك أقل نحافة.

وقررت أن تخرج مع سارة لمشاهدة معالم المدينة في فترة ما بعد الظهر. ولم تكن سارة قد شاهدت بعد مبنى البرلمان أو قصر بكنغهام. بل تاقت نفسها الى أن تسير في حديقة سانت جيمس بارك وتطعم طيور البط التي تسبح في البحيرة وتستمتع بشمس الربيع التي تومض من خلال الأشجار، وتحدثت راشيل الى سارة عن حياتها في لندن عندما

كانت طالبة، وعبرت سارة عن أمنيتها في أن تصير طالبة في يوم من الايام.

وعندما رجعا الى الشقة كانت السيدة تالبوت مديرة منزل السيد جيمس كنغدوم هناك، ولم تكن قد ضيعت وقتها سدى أثناء غيابهما اذ كان الأثاث نظيفا لامعا وأواني الطعام الذي تناولاه ظهرا وضعت نظيفة في مكانها الأصلي.

وأحست راشيل بشيء من الغضب والاحباط عندما اتضح لها أن جيمس قد أعطى تلك المرأة مفتاحا لشقتها، وأدركت أنه كان يسخر منها عندما كان يأتي ليدق جرس مسكنها وينتظر حتى تسمح له بالدخول.

وابتسمت السيدة تالبوت ابتسامة فيها شيء من الاعتذار وحيتهما بأدب:

"طاب يومك، سيدة غيلمور، أهلا يا سارة."

وأخذت تمسح يديها في الثوب الفضفاض الأزرق الذي كانت تلبسه فوق ملابسها، وقالت:

"أرجو ألا أكون قد تجرأت بعض الشيء يا سيدة غيلمور، لكنني انتهيت للتو من القيام بشيء من ترتيب المنزل."

وتزددت راشيل، ثم قالت بلهجة أكثر حدة:

"كيف دخلت هنا، يا سيدة تالبوت؟"

وهزت مديرة المنزل كتفيها، وقالت:

"ترك لي السيد .... مفتاحا."

"صحيح؟"

وأخذت راشيل تفك أزرار سترتها الناعمة، وخلعتها، ووضعتها على ظهر كرسي، وأيقنت أن السيدة تالبوت لم يكن لها ذنب في الموضوع، ولكن ذلك لم يكن يهون من الواقع.

واتجهت الى سارة وبدأت تعاونها على خلع السترة الفرائية. وجاءت السيدة تالبوت تقول:

"هل أعد لك فنجانا من الشاي؟"

ونصبت راشيل قامتها، ثم تنهدت بشيء من الاستسلام، وقالت:

"ولم لا؟"

ونظرت سارة باستغراب الى أمها عندما انصرفت السيدة تالبوت لتعد الشاي وقالت:

"لماذا هي هنا؟"

واصطنعت راشيل ابتسامة، وقالت:

"أوه، جاءت لتساعدني في أعمال المنزل. هيا اغسلي يديك بسرعة، أعتقد أنك تحبين أن تأكلي بسكوتة وشيئا من الحليب؟"

وأومأت سارة بالموافقة، وهرولت الى الحمام بينما استجمعت راشيل ما بقي لديها من رباطة جأش، واتجهت الى حيث كانت السيدة تالبوت، تهم بسكب الماء المغلي في براد الشاي، وقالت راشيل بهدوء:

"انظري... انني آسفة اذا كنت قد أبديت بعض الخشونة، ولكنني لم أكن أعلم أن جيمس يملك مفتاحا للشقة."

وأكملت السيدة تالبوت صب الماء المغلي، وقالت:

"حسنا، يا سيدة غيلمور. فهمت أنك لم تكوني تعرفين بسائر الترتيبات التي وضعها السيد كنغدوم ولكنه قال انه أخبرك أنني أبيت هنا عندما تكون سارة في المستشفى."

وشهقت راشيل نفسا عميقا، وقالت:

"أفهم ذلك. ولكن كيف عرفت أن سارة ستدخل المستشفى الليلة؟"

"أكد السيد كنغدوم من مستشفى سانت ماثيوز قبل أن يسافر."

وأومأت راشيل بالموافقة، وقالت:

"بالطبع... لابد أن يفعل... أوه.... حسنا....ان علينا أن نحتمل."

وبدا على السيدة تالبوت أنها أحست بشيء من الارتياح، وقالت:

"اذا أوضحت لي مكان نومي، يا سيدة غيلمور، فسأذهب الى غرفتي وأتركك في سلام."

وهزت راشيل رأسها، وقالت:

"أوه، لا تكوني بلهاء، لا بد أن نتناول الطعام معا، وأعتقد أنك تفضلين مشاهدة التلفزيون على أن تقيمي في غرفتك طوال الليل."

وابتسمت السيدة تالبوت عندئذ وقالت:

"لا مانع لدي من ذلك... ولكن لا تشغلي نفسك بي... فاذا أردت الخروج أو زيارة الأصدقاء."

واستدارت راشيل حتى لا ترى المرأة الأكبر وجهها، وقالت:

"ليس لي أصدقاء في لندن يا سيدة تالبوت."

ودق جرس الهاتف بينما كانت راشيل تساعد سارة، وهي تضع بعض مقتنياتها في حقيبة السفر المصنوعة من القماش، وكانت تالبوت في غرفة الجلوس، ولذلك أجابته وجاءت الى باب غرفة نوم سارة، بشيء من الدهشة، وقالت في أدب:

"انه السيد جويل كنغدوم، يا سيدة غيلمور، هل تردين على المكالمة؟"

واحمر وجه راشيل، كانت عندما سمعت الجرس يدق تظن أن المتكلم إما أن يكون جيمس أو سكرتيرته. ولكن ماذا كان يريد جويل؟ هل اكتشف بطريقة ما أن سارة ستمضي الليلة في المستشفى؟ أم أنه اكتشف السبب الحقيقي لزواجها من جيمس؟ كان من الصعب عليها أن تنهض على قدميها وتسلك كما لو أن شيئا عاديا أن يطلبها ابن زوجها على الهاتف.

وسارت راشيل مسرعة الى غرفة الجلوس تاركة السيدة تالبوت مع سارة، ورفعت السماعة، وقالت:

"نعم؟"

وكان صوتها ينم عن اضطرابها، ورد جويل:

"آسف! لم أكن أعرف أن معك كلبا للحراسة."

وتجاهلت راشيل لهجته الساخرة، وقالت:

"ماذا تريد، يا جويل؟"

"أريد أن أتحدث معك، يا راشيل! كنت سأقترح أن أحضر اليك بعد أن تنام سارة، ولكن يبدو أن ذلك مستحيل الآن (وصمت برهة) ومع ذلك فبما أن لديك من يقوم برعاية الطفلة بصفة مستمرة، فإنني أقترح أن نتناول طعام العشاء سويا."

"لا... أشكرك يا جويل!"

وطقطق بلسانه وقال:

"ولكنك لا تستطيعين أن ترفضي اقتراحي هكذا يا راشيل، فلا بد أن نتحدث وإذا أردت أن أحضر اليك..."

وأجابته بيأس:

"أنت تعرف أنه لا يمكنك هذا."

"حسنا! ... معقول... وإذن ماذا تقترحين؟"

"لا أستطيع أن أقترح شيئا."

ونظرت في ضيق خلفها، وأكملت:

"هل يمكنك أن تطلبني غدا، يا جويل!"

"لماذا، هل سيكون كلب الحراسة قد انصرف عندئذ؟"

"سوف تتركنا السيدة تالبوت صباح الغد."

"ألا يكون هذا إضاعة لاحدى الفرص؟"

"لا أستطيع أن أراك الليلة."

"إذا كنت تصممين (وسكت لحظة)، إذن فانني أدعوكما أنتما الاثنين غدا على وجبة الظهيرة."

"لا أعرف، يا جويل!"

"عند الحادية عشرة والنصف، يا راشيل."

قالها بشيء من التصلب.

"سوف أطلبك على الهاتف."

ووضع السماعة، وأعادت راشيل السماعة الى موضعها، ووقفت تحدق الى الهاتف ثوان، ثم قفلت راجعة الى غرفة نوم سارة، وهي تتنهد. كان شيئا شديد الايلام لراشيل دائما أن تترك سارة في المستشفى وعلى الأخص في هذه المرة، اذ كانت كل الممرضات غريبات عليها، وكانت سارة تبدو ضعيفة هشة في سرير المستشفى العالي الذي كان يعتبر الماكينة التي حفظت لها حياتها طوال الشهور الستة الأخيرة، وكأنه يتعدى عليها كمصاص ضخم للدماء. ولكن ذلك التشبيه لم يكن عادلا، فالواقع أن سارة هي التي كانت تأخذ دماء حياتها من الآلة. ورجعت راشيل بعد ذلك الى الشقة تسير بخفة على قدميها وهي غير راغبة في أن تتواجد مع السيدة تالبوت. وتمنت لو كانت تملك سيارة تقودها خارج المدينة بعيدا عن الشقة التي تجسد بقسوة فكرة ارتباطها بجيمس كنغدوم.

كانت تقترب من الشارع الصغير حيث يقع بيتها ومرت بجوارها سيارة سبور خضراء قاتمة توقفت فجأة أمامها، واعترتها الدهشة عندما وجدت النافذة القريبة منها تنزل الى أسفل، ووجدت نفسها تطالع ملامح اريكا غراي، ولم تندهش راشيل عندما انفتح باب السائق بقوة، وخرج منه رجل، هو جويل كنغدوم، ودار حول السيارة متجها اليها، كان وجهه متجهما ومتصلبا. وسألها باقتضاب:

"ماذا تفعلين -يا للشيطان- بالتجوال في الشارع في هذا الوقت من الليل؟"

كان جذابا يميل الى السمرة، يرتدي بذلة عشاء من المخمل الأحمر الداكن. واعترى راشيل نوعا من الانزعاج، وقالت في شيء من الدفاع عن النفس:

"الوقت ليس متأخرا بعد... ثم إن هذا أمر لا يعنيك."

ونظرا لأن جويل كان يدرك أن اريكا تستطيع أن تسمع كل كلمة يقولانها اكتفى بزم شفتيه، ولكن عينيه كانتا تتوعدان المحاسبة فيما بعد وقال:

"اصعدي الى السيارة، سنوصلك الى البيت."

وأجابت في شيء من التوتر:

"اشكرك، لم يبق لي سوى ياردات قليلة."

وعندما أدركت أن اريكا تشعر بشيء من الغضب أكملت:

"كان الجو جميلا في المساء، وأحسست برغبة في المشي. طبت مساء.. طبت مساء يا آنسة غراي."

وتقوست أصابع جويل حول زندها ليمنعها من التحرك، وقال:

"انتظري!"

كان قد اقترب أكثر منها، وكان بوسع راشيل أن تحس بدقات قلبها في أذنيها، ومست أصابعها قماش سترته الناعم، واخترقت عيناه الجريئتان الثاقبتان عينيها، وقال:

"هل أكلت؟"

وحاولت راشيل أن تومىء برأسها:

"نعم، بالطبع."

وجذبت عينيها بعيدا عن وجهه، وقالت:

"هل يمكن أن أنصرف الآن؟"

وشدد جويل ضغط أصابعه على ذراعها عن عمد. وأخيرا وبإشارة تنم عن السخرية، تركها تنصرف، ورجع الى السيارة وقال:

"سوف ننتظر حتى تدخلي المبنى."

وأسرعت راشيل حول ناصية الطريق، ودخلت المبنى وكانت على وشك أن تبكي بغباء، وحاولت أن تقنع نفسها بأن ذلك نتيجة لقسوته المتعمدة، لكن التعذيب الداخلي الذي تشعر به كان شيئا أكبر بكثير من الألم الجسدي. وحدثت نفسها بمرارة. كان يعتقد أن بإمكانه أن يخرج من الموقف بأي شيء وكان على الأغلب يحصل على ذلك الشيء.

وحاولت أن تنشق أنفاسا مهدئة، ثم بدأت تصعد الدرج الى شقتها. وكان من الخير أن عادت الى شقتها في ذلك الوقت، فقد دق جرس الهاتف بعد أن دخلت الشقة بدقائق قليلة، وكان المتحدث هذه المرة هو جيمس كنغدوم وقال:

"تصورت أنك لن تتغيبي كثيرا. هل استراحت سارة في المستشفى؟"

"نعم! للغاية، كيف حالك؟"

"أوه! إنني بخير، ومشغول جدا بالطبع. هل حضرت اليك السيدة تالبوت؟"

وكانت السيدة تالبوت تشاهد البرنامج التليفزيوني في الركن الآخر من الغرفة، وقالت:

"نعم... هي هنا."

"حسنا، فأنا لا أحب أن أفكر أنك وحيدة في الشقة."

وعلقت راشيل بجفاف:

"سارة لا تصلح حارسا!؟"

ولكن من وجهة نظر جيمس ربما كانت سارة بالفعل حارسا في بعض الأوقات، والأمر يتوقف على ما يريد المرء أن يحرسه، وأجاب:

"أعرف، ولكنني ظننت أنك تقلقين عليها أكثر إذا كنت وحيدة."

وسألته وكأنها تريد أن تغير الموضوع:

"متى تعود؟"

وصمت جيمس لحظة، ثم أجاب:

"يوم الخميس المقبل على ما أعتقد. لماذا؟ هل اشتقت الي؟"

ونظرت راشيل مرة أخرى تجاه السيدة تالبوت، وبدا صوتها قاسيا شيئا ما، وهي تقول:

"بالطبع."

وأراد أن يستثيرها فقال:

"لا تتظاهري بأنك متحمسة لهذه الدرجة بهذا الخصوص. هل السيدة تالبوت معك؟"

واصطنعت راشيل شيئا من الاسترخاء، وقالت:

"نعم، إننا نرقب البرنامج التليفزيوني."

وعلق بشيء من التردد:

"أفهم، هل رأيت جويل؟"

وفقدت شعورها بالاسترخاء، وتصلبت أصابعها حول السماعة، وفكرت في شيء من الغيظ: لا بد أنه تحدث بالطبع مع سكرتيرته خلال اليومين الماضيين، وأجابت في حرص:

"نعم! رأيته."

"متى؟"

"ألا تعلم؟ لقد جاء الى "الصالون الرمادي" ليزور السيدة غراي بينما كنا هناك.."

"صحيح! ماذا كان يريد؟"

وكزت راشيل على شفتها السفلى بشيء من الألم، وقالت:

"قلت لك انه حضر لزيارة الآنسة غراي."

وساد صمت ثم قال جيمس:

"آمل الا تخبري جويل بشيء عن مرض سارة."

"ولماذا أخبره؟"

"فعلا، لماذا؟ انك تعلمين بالعلاقة بينه وبين اريكا غراي الآن! أليس كذلك؟"

ولعقت راشيل شفتيها، وقالت:

"لا أعتقد أن هذه المسائل تعنيني."

وأبدى الموافقة قائلا:

"لا، ربما لا! أعتقد أنك تعرفين تماما طبيعة ابني، وتعرفين ما يريده من أية امرأة."

"لا داعي لأن تشرح لي يا جيمس، أنا لست بلهاء تماما."

"لا يا عزيزتي، غير أنني أشعر أنه من واجبي أن أحميك (وسكت لحظة) والآن ولأسباب أخرى أكثر أهمية، قررت أن من الخير أن نعلن خطوبتنا الرسمية قبل، قبل عملية سارة."

وصدمت راشيل للنبأ، وقالت:

"قبل؟"

وأجاب جيمس بما ينم عن إعمال الفكر:

"نعم، وفي أية حال فانك كخطيبة لجيمس كنغدوم سوف تحصلين على ميزات معينة، بل ان الامر يبدو لي أنه الترتيب الأكثر ملاءمة من زوايا متعددة. فنحن لا نريد أن يظل هذا الامر سرا يا راشيل، وهناك بعض الاجراءات الرسمية ينبغي أن أقوم بها. وفكرت أن نعقد اجتماعا بسيطا في أي مكان وليكن فندقا مثلا، وتعلن الخطوبة رسميا بعد حفل عشاء، ما

رأيك؟"

"لا أعرف فيما أفكر."

وكان في ذلك على الأقل شيء كبير من الحقيقة. ثم أضاف:

"كلما تم تقبل جويل وفرنسيس لفكرة إتمام هذا الزواج في وقت أبكر كنت أكثر ارتياحا لذلك، وعندما تصل سارة الى الحالة التي تستطيع فيها أن تحتمل السفر نقيم حفل زواج عادي، قبل أن نسافر الى لياركوس."

وكان قد مضى على راشيل فترة طويلة ظلت فيها صامتة، لدرجة أنه قال:

"راشيل؟"

وكان عليها أن تجد شيئا ترد به بسرعة، وقالت ببطء:

"إذا كان هذا هو ما تريد؟"

وسألها بحدة:

"أليس هو ما تريدينه أنت أيضا؟"

وأسرعت تطمئنه:

"إنني فقط أفكر في مقابلة كل أصدقائك ومعارفك. ترى ماذا سيكون رأيهم في؟"

واختفت نغمة القلق القصيرة من صوته، وقال:

"يا عزيزتي... سيصاب الجميع بالدوار من الحسد. هل وصلتك بعض الملابس من صالون اريكا؟"

وهدأت راشيل من صوتها، وقالت:

"ملابسي؟ لم يكن لدي أدنى فكرة أن امرأة واحدة يمكن أن تمتلك كل تلك الملابس."

وظهر أنه قد سر بذلك، وقال:

"سوف أراك تلبسينها، هل تقابلينني في المطار عند عودتي؟"

"إذا كنت تحب أن أفعل ذلك."

"بالتأكيد."

وتنهد بشيء من الاسف وقال:

"والآن علي أن أنصرف.. إنني أتكلم من بيت السيد هارتز وهو أحد المندوبين في المؤتمر الذي أحضره، ولست على ثقة من أنه سوف يرحب بهذه المكالمة على قائمة الحساب.. بلغي سارة حبي عندما ترينها في الغد، وأخبريها أنني سأحضر لها هدية خاصة."

كانت راشيل تتمنى لو كان شعورها بالعرفان أكثر عمقا
وهي تضع السماعة، وبرغم كل شيء فإن نساء كثيرات يمكن
أن يحسدنها على فرصة الزواج من أحد كبار الاثرياء في
لندن. ولماذا اذا كانت تشعر باستمرار بأنها أشبه بالفأر
الصغير الذي وقع بين مخالب قط؟ وخطر لها أن ما يطلبه منها
يعتبر شيئا تافها اذا ما كان يعنيه بالنسبة الى سارة هو
الفارق بين الحياة والموت.

وانصرفت تالبوت صباح اليوم التالي بعد التاسعة بقليل،
وشعرت راشيل بالارتياح لذلك، اذ كانت تخشى حرج الوقوع
في البحث عن عذر لقدوم جويل الى الشقة، وقررت أنه عندما
يصل جويل فسوف تصارحه بكل شيء حدث، كل شيء.

وذهبت الى المستشفى لتحضر سارة، التي سألتها وهما
تسيران في طريق العودة الى الشقة تحت شمس غائمة:

"ماذا سنفعل يا أمي؟ أعتقد أن اليوم سيكون يوما جميلا، هل
نمضي بعض الوقت في استطلاع المعالم السياحية مرة
أخرى؟"

وتنهدت راشيل، وقالت في شيء من التردد:

"الحقيقة أن السيد كنفدوم سوف يحضر لاصطحابنا الى
الغداء"، وشعرت بشيء من وخز الضمير عندما نطقت سارة:

"جويل؟ هو؟ بحق هو؟ أين يصطحبنا؟ هل تظنين أنه ربما
يأخذنا الى شاطيء البحر؟"

وقالت راشيل بوهن:

"لا أعتقد ذلك، فالجو شديد البرودة."

"إنه ليس باردا على الاطلاق."

وأجابت راشيل:

"حسنا، ولكنه لا يسمح بالذهاب الى شاطيء البحر."

وشعرت بالضعف عندما رأت وجه سارة يعكس القنوط مرة
أخرى، وقالت:

"لننتظر ونرى، احكي لي عن المستشفى. هل كان كل شخص
هناك رفيقا معك؟"

وأدركها جويل بعد الحادية عشرة بقليل، حين كانت راشيل
تشارك سارة في احتساء كوب الحليب الذي تعودتاه في فترة
الصباح. وكانت للتو قد خلعت الدبابيس من شعرها وعلى
وشك أن تمشطه عندما دق جرس الباب.

وذهبت سارة لترى من الطارق بينما شغلت راشيل بتثبيت
شعرها ولكن يديها كانتا ترتعشان بسبب العجلة.

كان جويل يلبس في ذلك الصباح بذلة زرقاء من قماش
قطني متين لها سترة قصيرة فوق قميص باللون الازرق الفاتح
دون ياقة. وومضت عيناه على سروالها الاخضر وقميصها
القرمزي، ثم ضاقتا عندما استقرتا على شعرها بجماله الحسي
الغامض. وقال بصوت أجش:

"لا تلفيه الى أعلى هكذا، اتركيه طليقا."

ولكن راشيل استدارت بعيداً، وقالت:

"إنه طويل بدرجة لا تسمح أن أتركه طليقا."

وواصلت تثبيته في التسريحة المعقودة على مؤخرة
عنقها.

وقالت سارة في صوت صغير:

"ماما قالت انك ستصطحبنا الى الغداء."

وبعد أن تردد لحظة التفت جويل الى الطفلة، وانحنى
عليها، ورفعها الى أعلى بين ذراعيه وهو يبتسم في عينيها
وقال:

"نعم سأفعل."

قالها وهو يبدي علامة الموافقة، وأضاف:

"يا لله! إنك كتلة ثقيلة! كم وزنك؟ نصف طن؟"

وضحكت ضحكة خفيفة فيها شيء من السذاجة، وقالت:

"لا! إن وزني ٤٨ ليبرة فقط. أعرف ذلك لأن الطبيب لوريمر
قال ذلك."

"الطبيب لوريمر!"

قالها جويل بغضب.

"ومن يكون الطبيب لوريمر؟"

ونظرت راشيل اليه نظرة توسل، وقالت:

"جويل!"

"هل قلت شيئا خاطئا؟"

"لا داعي لأن تسأل الطفلة."

"ولكن الانسان يسأل الطفلة اذا لم يجد الاجابات في أماكن
أخرى."

"سأجيب عن أسئلتك."

"صحيح... ستفعلين؟"

والتوت شفتا جويل.

"وماذا عن... لماذا تتزوجين أبي؟ اذن..."

وتغضن فم سارة، وقالت:

"أوه! لماذا تتجادلان ثانية؟ انكما دائما تتجادلان! قلتما انكما أصدقاء."

وتنهد جويل، وتخلصت ملامحه من التوتر:

"نحن أصدقاء."

وطمأنها برفق وأضاف:

"والآن... هل أنت مستعدة؟"

كانت سارة قد ذهبت الى الحمام وأكملت راشيل تثبيت شعرها، ولبست السترة الجلدية القصيرة التي كانت أحضرتها مع السروال، وكانت تتجنب عيني جويل، ولكن صوته كان آسرا، وهو يقول:

"إنني مصمم على أن أكتشف، بالوسائل المشروعة وبغير المشروعة!"

ورفعت راشيل عينيها اليه، وقالت:

"وهذه الأخيرة تعرف منها الكثير، الوسائل غير المشروعة!"

وحرك جويل رأسه ببطء من جانب الى آخر، وقد سيطر عليه شعور بالحيرة، وقال:

"إنك تستمتعين بسوق مثل هذه الاتهامات الي. ما الذي تستفيدينه من ذلك؟ هل تشعرين بالارتياح عندما توبخينني لأنك تعرفين تماما أنك في مأمن كامل... طالما سارة معنا؟"

وحاولت راشيل أن تهز كتفيها بشيء من اللامبالاة، وقالت:

"إنني أقول فقط ما أحس به."

"ولا تقيمين وزنا للنتائج؟"

وسألته بقسوة:

"هل تنكر أنك تستحق الاتهامات التي أوجهها اليك؟"

"ليس كثيرا."

"إنك تعتقد أنك ذكي للغاية؟"

ورد عليها في رفق:

"لنقل إنني لا أظن أنك انت ذكية للغاية."

"أعتقد أنك لست في وضع يسمح باصدار مثل هذا الحكم."

"ربما لا، ولكن توجد نقاط أخرى عديدة حول هذا الموضوع

ما زالت لا توصل الى النتائج، ولكنها ستوصل الى النتائج بمرور الوقت."

"لا ينبغي لي أن أعتمد على ذلك.."

"ولكنني أفعل هذا، انني أعتمد على ذلك كثيرا جدا."

(ولم تكن الابتسامة التي ترتسم على وجهه تدل على الابتهاج وأضاف:)

"وسوف تقومين أنت بتقديم الاجابة لي."

"أليس كذلك؟"

وكورت راشيل قبضتي يديها، وقالت:

"لم لا تسأل أباك لماذا يتزوجني؟"

"هل تعتقدين أنني لم أسأله؟"

وسألت بارتعاش:

"وماذا قال؟"

"ولماذا أخبرك بذلك؟ انني أريد أن أعرف القصة من وجهة نظرك أنت."

وقالت راشيل وهي تعبث بأزرار معطفها:

"لا أعتقد أنه أخبرك بشيء، ولو أنه فعل لما كان لك هذا الاهتمام بالسؤال عن دوافعي."

وحنى جويل رأسه، وقال:

"حسنا، انني أسلم لك بهذه النقطة، ولكن من الواضح على الاقل بالنسبة الى شخص له أخلاق كأخلاقي أن الحب لا دخل له في هذا الموضوع."

"انك لا تعرف ذلك."

"أنا لا أعرف ذلك؟ إذن لماذا لم تقولي لي هذا الكلام منذ البداية."

وتقوست شفتاه بشيء من الاحتقار وأضاف:

"أوه، يا راشيل، إنك لا تحبين أبي، ربما تحبين نقوده، ولكنك لا تحبين أبي..."

وصفعته على وجهه صفعة شديدة قبل أن يكمل الكلام، ولكنه لم يحاول أن يمنعها، واكتفى بأن ابتسم، ثم حول حدقتي عينيه الى نقطة أخرى وراءها، وقال:

"هل أنت مستعدة يا سارة؟"

"حسنا... فلنذهب اذن!"

لم تكن راشيل تتذكر كيف جمعت حقيبتها، وسترة

سارة، وتبعتهما بعد ذلك، كانت تبدو وكأنها مخدرة بدرجة كبيرة، وكان النهار لا يزال ممتدا مفعما بالبرودة، وكانت سارة تجلس في المقعد الخلفي وكان عليها أن تجلس الى جانب جويل في مقدمة السيارة ولم يكن أمامها خيار!

٧ - السر يباح

كانت راشيل تجلس في قاعة الانتظار تنتظر بشيء من القلق عودة سارة وجويل، وقد مضى على رحيلهما لزيارة مبنى الملاهي أكثر من نصف ساعة. وبدأت تشعر بالضجر وهي تحاول أن تتجنب النظرات الجريئة من شابين يجلسان في جانب القاعة. ولكن عندما اقترحت سارة في أول الأمر أن تجرب لعبة الكرة والدبابيس، كانت راشيل راغبة في أن تبقى حيث هي، وبذلك تجد وقتا تستعيد فيه رباطة جأشها، وكان طريق الشاطىء الذي يقع خلف نوافذ الفندق يبدو مهجورا، والضباب يتعرج على شكل حلزوني حول أشجار الزينة وحول الشجيرات في حديقة الفندق مما جعل الجميع يهرعون الى الداخل.

وعندما استفسرت سارة اذا كان بالامكان أن يذهبوا الى شاطىء البحر، استغل جويل فرصة صخبها بالابتهاج بتلك المناسبة ليسأل راشيل اذا كان لديها أي اعتراض.

ولكن راشيل أجابت أن "لا فرق، وأن كل الاماكن سواء". وبعدها لم يبذل أية محاولة ليشدها الى الحديث الدائر بينه وبين سارة، وكانت راشيل تعجب حقا من الطريقة التي تثرثر بها مع جويل، فقد كانت تضحك وتتبادل الفكاهات معه وتسأله أسئلة لا تجرؤ راشيل ذاتها أن تسألها، وجعلها ذلك تفكر بامعان فيما إذا كانت علاقة الدم هي التي جعلت ذلك ممكنا.

اتجهت السيارة بهم صوب الجنوب، واعتقدت راشيل أنه يقصد برايتون، وكان الصباح صباح ربيع مشرق في لندن، ولو كان وقتا آخر لتطلعت الى مشية رشيقة على الشاطىء بعدما تناولت وجبة الظهيرة، ولكن نظرا للظروف المحيطة فان الفرص لم تكن مشجعة، وزاد من اكتئابها أن برايتون تبدو غارقة في نوع من اضطراب البحر والرطوبة، جعلت النزهة على الشاطىء شيئا مستحيلا.

وصلوا قبيل الواحدة ظهرا بقليل، ولكي يبعد جويل عن سارة الشعور بالاحباط وعدها بأن يأخذها الى مبنى الملاهي بعد وجبة الغذاء.

وأبدى الجميع اعجابهم بالطعام، حتى راشيل رغم أنها لم تستطع أن تأكل شيئا، وكان جويل يركز على سارة التي أكلت وجبة شهية وكانت سعادتها واضحة. وشربوا القهوة في قاعة الانتظار، وهنا بدأت سارة تلح في زيارة مبنى الملاهي، ووجدت راشيل العذر لعدم الذهاب معهما، أما سارة فكانت سعيدة تماما لذهابها مع جويل. ولكن راشيل الآن تتمنى لو ذهبت معهما، ولم يكن باستطاعتها أن تبقى في قاعة الانتظار بالفندق، كما لم تكن لديها رغبة خاصة للخروج في الهواء البارد الرطب.

ونهضت ووضعت حزام حقيبتها الجلدي على كتفها، وخطر لها أن تسير على شاطىء البحر مسافة قصيرة فلربما وجدت مبنى مدينة الألعاب.

وخرجت الى ردهة الاستقبال متجاهلة العيون العديدة التي تتبع سيرها، وبدأت تهبط الدرج، وترددت قبل أن تبارح الفندق.

وجاء صوت غريب من خلف أذنها يقول: لا ينبغي أن أشغل نفسي بأمره! واستدارت لتواجه واحدا من الرجال الذين كانوا يرقبونها، وقالت في شيء من الصلابة:

"عفوا، ماذا تريد؟"

"زوجك! الشخص الذي مضى مع الفتاة الصغيرة، لا ينبغي أن أشغل نفسي بأمره."

"أعتقد أنك مخطىء."

"لا! هو المخطىء يا حبيبتي. كيف يترك زهرة جميلة مثلك؟ ما الذي حدث؟ هل تشاجرتما؟"

ونظرت راشيل حولها تطلب النجدة، ولكنها كانت قد ابتعدت عن الفندق، ولم يكن هناك من يستجيب لنداء الاستغاثة، وقالت:

"أرجوك أن تنصرف، وتتركني لحالي، إن زوجي وابنتي قادمان الآن."

"حقا؟ لا يبدو ذلك."

"انصرف عني!"

كانت أنفاس راشيل قد بدأت تضطرب، ولم يكن حدث لها مثل ذلك من قبل.

"تعالي... واشربي كأسا معي ومع صديقي. لن تجدي انسانا في هذا الضباب."

"إذا لم تنصرف!"

وسمع صوت يقول:

"راشيل!"

كان صوت جويل موضع ترحيب كامل من راشيل. كان يخطو بخطوات واسعة خلال الحديقة، بينما سارة تجد في أثره، وجرت راشيل لتقابله وألقت بنفسها بين ذراعيه وهي ترتعد ثم دفعها بيديه، وأخذ يسأل:

"ما الخبر؟ ماذا كان ذلك الرجل يقول لك؟"

واستعادت راشيل هدوءها، وقالت:

"أوه... أوه... لا شيء."

ونظرت وراءها، ولكن الرجل كان قد اختفى وعندئذ أخذت سارة تشد بقوة يد أمها:

"قابلنا ذلك الرجل صديق جويل، وهو يمتلك هذا القارب، وقال اذا حضرت في يوم آخر لا يكون فيه ضباب فسوف يأخذني في القارب. ممكن يا مامي؟ ممكن؟"

وقال جويل، وهو يهز رأسه:

"ليس الآن يا سارة... ماما الآن تعاني من صدمة بسيطة."

وأدار بصره الى راشيل.

"هل دخل الفندق، ذلك الرجل الذي كان يتحرش بك، هل أجد في أثره؟"

وهزت رأسها بسرعة، وقالت:

"أوه! لا... لا..." هو لم يتحرش بي حقيقة. كان فقط يستظرف نفسه على ما أعتقد، وفضلا عن ذلك فانهما في الحقيقة رجلان في الفندق."

كان فم جويل متجهما، وقال:

"هل تقولين ذلك لتخيفيني؟ أم أنك تخشين أن يصيبني بعض الأذى؟"

وحركت راشيل كتفيها وتمتمت:

"بعض من هذا وبعض من ذاك، على ما أعتقد!"

وتردد جويل لحظة، وقال:

"هيا... لنبحث عن مكان نشرب فيه الشاي، وبعدئذ نعود الى المدينة."

كانت رحلة العودة الى لندن بالنسبة الى راشيل أكثر إمتاعا، واستطاع جويل أن يجعل من شخصه صحبة مسلية، وكانت سارة تشعر بسعادة غامرة لأن أمها الآن تشارك في الحديث. ولكن سارة غلبها النعاس في المقعد الخلفي للسيارة، وقال جويل:

"لم يكن اليوم ناجحا للغاية؟"

ونظرت راشيل اليه شزرا وقالت:

"كيف؟"

"أخذتكما الى برايتون وكنت أعتقد أنه بامكاننا أن نجد بعض الوقت للحديث.... ولكن لم تسر الأمور وفق تقديري..."

ودمدمت راشيل:

"ولم تكن البداية طيبة كذلك."

وعلق:

"وتعتقدين أنني المسؤول عن ذلك؟"

"لم أقل هذا!"

"هل تعتزمين إذن أن تتحدثي الي؟"

"ألسنا نتحدث الآن؟"

"لا... إننا نتبادل الكلمات فقط."

"أوه! يا جويل! لماذا تصر دائما على أن تجعل الحياة صعبة؟ لماذا لا تقبل أنني سأتزوج أباك."

"لا أستطيع أن أقبل ذلك."

"يجب أن تقبله."

"راشيل، إن سارة ابنتي... إنها لحمي ودمي."

وتقوست أصابع راشيل، وقالت:

"إن لك عملك وحياتك، يا جويل، وهذا ما تحرص عليه."

"كنت أظن أن ذلك كل ما أريد..."

وهزت رأسها في يأس، وقالت:

"هل أنت متأكد من أن الأنانية ليست الدافع الوحيد وراء اهتمامك؟"

وتصلبت أصابعه على عجلة القيادة، وقال:

"إنني أتركك توجهين الي كلاما كثيرا يا راشيل، ولا

يمكن لشخص آخر أن يتجرأ على جزء مما تفعليه."

وأدارت راشيل رأسها، وصارت تحدق بلا غاية. وقالت:

"لست أطلب تسامحك أو تساهلك!"

وأخذ جويل يسب برفق:

"لا... ألا تستطيعين أن تلتقي معي على منتصف الطريق؟"

"لا توجد علامة تحدد منتصف الطريق فيما بيننا."

ودمدم في صوت أجش:

"أعتقد أنك لست أقل احتراما لي في داخل نفسك..."

واحمر وجهها، وقالت:

"لا أعتقد أن تبادل السباب يمكن أن يؤدي بنا الى أي تقدم..."

"إنني لا أسبك... إنني فقط أذكر الحقائق.."

"ما الفائدة التي ترجى من إثارة هذا الآن؟"

"ولم لا؟ كان من حقي أن أعتبر هذه نقطة جوهرية تماما في الموضوع."

وصاحت في غضب:

"فقط لأنني أخذت على غرة عندما جذبتني... وهذا لا يعني أنني أحتفظ بعاطفة يائسة نحوك... ومن الغريب أنني لا أستطيع مقاومتك."

وساد صمت كامل، وعندما جازفت بالنظر اليه مرة ثانية أحست إحساسا سخيفا بالندم عندما رأت خطوط المعاناة التي ترتسم على فمه.

وأوقف جويل السيارة أمام مدخل المبنى حيث تسكنان، وقطبت سارة وجهها عندما رأت أن أمها فقط تستعد للنزول وأخذت ببراءة تدعو جويل:

"ألا تنوي أن تأتي معنا، يا جويل؟"

وتبادلت راشيل معه نظرات سريعة وعززت الدعوة بشيء من الحرج:

"نعم، تفضل، سوف نشرب الشاي ونتناول بعض الشطائر اذا كنت تقبل ذلك."

وتردد جويل بعض الشيء، وكانت أصابعه لا تزال حول عجلة القيادة، وسأل:

"وماذا عن السيدة تالبوت؟ ألا تجد في ذلك شيئا من الغرابة؟"

وأجابت سارة:
"السيدة تالبوت ليست هنا، انصرفت هذا الصباح، أقامت مع ماما الليلة الماضية عندما كنت أنا في المستشفى".
وخرجت راشيل من السيارة، لكن جويل كان سبقها الى ذلك، وأغلق بابه بالمفتاح، كما أغلق بابها. ورفع سارة على كتفيه وقال لها:
"إذن كنت في المستشفى الليلة الفائتة، يا عزيزتي. ماما لم تقل شيئا عن ذلك".
واستقلا المصعد الى الشقة، وظل رأس راشيل مطأطأ تخشى اللحظة التي تخبر فيها جويل بالحقيقة. اذ كانت تحس أنه قد آن الأوان لذلك.
وحمدت الله أنه لم يثر الموضوع بعدما دخلوا الشقة مباشرة، بل استرخى على الأريكة، وصار يبدي إعجابه باللعب التي كانت سارة تحضرها له ليتفرج عليها، وفي النهاية استجاب لطلبها ورسم صورة كاملة لها وهي تلعب مع هيلغا ولعبها الاخرى، وقالت لراشيل انها صورتها المطابقة لها تماما.
زاد الجوع من شهيتها للطعام، ورفضت أن تفكر في أي شيء آخر. وجلس [illegible] الطرف الآخر من المائدة بعد أن خلع سترته القطنية. وخلما وقعت عيناها في عينيه كانتا تحذرانها بانه لم ينه بعد الموضوع معها. وبعد أن احتسى فنجانا ثانيا [illegible]
"كان الطع[illegible]
ونظر الى سارة وقال:
"ما [illegible] بغسل الأطباق والأواني بدلا من ماما؟"
"حسنا".
وكان هذا شيئا جديدا بالنسبة الى سارة التي لم يسبق لها أن أحست بأنها عضو في أسرة.
"ولكن هل أستطيع أن أعمل؟"
كانت راشيل تجلس قلقة في غرفة الجلوس بينما جويل وسارة يغسلان الأواني، وكانت تسمع سارة وهي تطرطش في الماء وتضحك بسذاجة من الكلام الذي يقوله جويل. وخطر لها لماذا لا تستجيب سارة لجيمس الدرجة نفسها. لكن جيمس

لم يسبق أن لاعبها أبدا. كان يتكلم معها بالطبع، ويهتم بشؤونها، ويحضر لها أشياء كثيرة، لكن لم تكن بينهما العلاقة التي من الواضح أنها قد وجدت بين سارة و... أبيها.
وعندما رجعا الى غرفة الجلوس كان وجه سارة يعكس بعض الضيق، وقالت:
"سترتي كلها ابتلت... يا ماما".
وعلق جويل باختصار:
"آسف! إنها غلطتي، سوف تجف".
كانت عيناه تتحديان راشيل، ولم تستطع من جانبها أن تتحمل نظرته القاسية، وقالت تطمئن الصغيرة في شيء من التسرع:
"لا بأس... يا سارة. يمكنك أن تخلعي كل ثيابك الآن، وسوف أعاونك على الاستحمام".
وصاحت سارة في الحال:
"هل يمكن أن ينوب عنك جويل في ذلك؟"
وزفرت راشيل وقالت:
"لا، يا سارة، سوف أقوم أنا بذلك".
وقال:
"ما الحكاية يا راشيل؟ هل تخشين أن أرى آثار آلة نقل الدم... هذه هي علتها... أليس كذلك؟ مرض الكلية؟"
كانت سارة تريد كوبا من الحليب لوجبة العشاء، وذهبت الى غرفة الجلوس لتقول "تصبح على خير" لجويل، وسألته:
"هل ستأتي لتغطيني في الفراش؟"
كانت تبدو صغيرة ومتوسلة في بيجامتها القطنية المزخرفة بقصيبات النبات. وكانت راشيل ترقب وجه جويل، وتعجبت:
"هل يمكن أن يتغير شعوره نحو الاطفال؟"
وخطر لعقلها خاطر مخيف، لو أن جويل علم بوجود سارة في ظروف أخرى فلربما رغب في أن يتبناها هو واريكا!
وكان صوتها جافا، وهي تحدث سارة:
"أرجوك أن تسرعي يا سارة، فقد تجاوزت الساعة السابعة".
وردت سارة باصرار:
"أريد أن يأتي جويل".
ونهض جويل، وقال:
"ولم لا؟"

ونظر الى سارة بابتسامة متسامحة وهو يقول:
"هيا، أرني أين تنامين؟"
وصحبتهما راشيل الى غرفة النوم، وبعدما قبلت سارة وتمنت لها أن تصبح على خير، تركتهما وعادت الى غرفة الجلوس، ولم تكد تفعل حتى رن جرس الهاتف، وبدأت أعصابها تهتز. كانت تستطيع أن تتصور من المتحدث، وقالت في صوت هادىء:
"هالو!"
"راشيل؟ راشيل؟ هذا أنت؟"
كان صوت جيمس، ونشقت راشيل نفسا مضطربا قبل أن تجيب:
"نعم، نعم، يا جيمس. إنه أنا!"
"هل أنت بخير؟ يبدو عليك الاضطراب."
"لا، لست مضطربة."
وكانت راشيل تحاول بصعوبة أن تحتفظ بثبات صوتها. وأضافت:
"الواقع أنني كنت أساعد سارة على النوم."
"وكيف حالها؟ هل سار كل شيء على ما يرام الليلة الفائتة؟"
"نعم... كان كل شيء على ما يرام... وكيف حالك، يا جيمس؟"
"كالعادة، على أحسن ما يكون. وماذا عنك؟ هل تستمتعين بوقت جميل في لندن؟"
"إنه أبعد ما يكون عن ذلك يا جيمس."
"ولم لا؟ لا شك أن الآنسة كلاي أخبرتك أنني فتحت لك حسابا في مصرف هارودز، ألم تخبرك بذلك؟ كنت أتخيل أنك تستمتعين بصكوك الشراء المفتوحة."
وزفرت راشيل زفرة، وقالت:
"لا! لا! لابد أن الآنسة كلاي نسيت أن تخبرني بذلك، ولكن، أرجوك ألا تسبب لها المتاعب يا جيمس!"
"سوف يكون أول شيء أفعله في الصباح أن أتصل بالآنسة كلاي حول هذا الموضوع."
كانت راشيل تحاول أن تعترض، ولكنها تعلم أن ذلك الاعتراض بلا جدوى، فان جيمس عندما يقرر أمرا يصمم عليه بلا تراجع، وكانت يدها التي تمسك بالسماعة ترتعد

بعض الشيء، وواصل حديثه:
"وفي أية حال، ظننت أنه من المناسب أن أضعك معي في الصورة فيما يتصل بترتيبات حفل الخطوبة، اتخذت بالفعل بعض الترتيبات الأولية وخطر لي أنك ربما تريدين أن توجهي الدعوة الى أشخاص معينين."
وهزت راشيل رأسها بالنفي ثم قالت:
"لا أعتقد."
كان الأشخاص الوحيدون الذين يمكن أن تدعوهم يعيشون بعيدا عن لندن.
"حسنا، اذا."
أجاب جيمس بهذه الاجابة، ولم يبد أنه شعر بنوع من الاحباط. وخيل الى راشيل أنه لن يتحمس لدعوة أي من زملائها من ملجأ الايتام ولا شك أنه كان يريد أن يجعل منها صورة مثالية يصنعها على يديه، كما كان يفعل من قبل مع كل الاطفال الايتام الذي كان يتبناهم.
وأحست راشيل بجويل يقدم من الداخل، ثم وقف خلفها، ولم يقل شيئا، ولكنها أحست بوجوده الصامت، وكان ذلك مما سبب لها بعض التوتر وقالت، وكأنها تريد أن تنهي الحديث:
"هل هذا كل شيء إذا؟"
وتبع ذلك صمت دام لحظة، وتحدث جيمس أخيرا:
"هل أنت متأكدة أنه لا يوجد ما يضايقك، يا راشيل؟ يبدو أنك شاردة بعض الشيء."
وحبست راشيل أنفاسها، وقالت:
"أخبرتك يا جيمس، أنني بخير، كل ما لدي هو شيء من الصداع."
وأحدث جويل صوتا يدل على التشكك، وصار يتنقل داخل الغرفة وقد أشعل سيكارا، ولحسن الحظ فان جيمس كان يحاول التخفيف عنها، ولم يسمع شيئا غير مناسب، وسألها:
"لماذا لم تقولي لي ذلك؟ لا بد أنه تغيير الجو."
وسكت لحظة ثم قال:
"حسنا، يا عزيزتي، سأضع السماعة. وعلى فكرة، فإنني أنوي العودة يوم الثلاثاء بدلا من الخميس. وسأخبرك بوقت الوصول فيما بعد، بلغي سارة حبي، هل تفعلين؟"
"سوف أفعل، وداعا يا جيمس."

"الى اللقاء، يا حبيبتي".
قالها بالألمانية، وأردف يقول:
"كما ترين، فإنني أتعلم اللغة".
وأجابت راشيل اجابة مناسبة، والتفتت على مضض لتواجه جويل الذي كان يقف أمام المدفأة، وعلق في سخرية باردة:
"حبيبتي!"
قالها هو الآخر بالألمانية، وأضاف:
"أبي تحول الى عاشق في كبر سنه".
واتجهت راشيل الى النوافذ تجذب الستائر، وهي تقول:
"هل ينبغي أن تكون بغيضا؟ يخيل الي أنك بعدما اكتشفت نقطة الضعف في سارة تريد أن تستغلها في الاعتراض".
وزفر جويل زفرة ثقيلة، وأجاب في شيء من القوة:
"أعتقد أنه كان من حقي أن أعرف الحقيقة عن حالتها، قلت من قبل إنها تعاني من نقص طفيف في الدم، وكانت تلك إجابة مضللة، سارة تحتاج الى جهاز الكلية الصناعية، وذلك هو السبب في دخولها المستشفى الليلة الماضية".
واتجهت راشيل اليه، وهي تطوي يديها باحكام:
"حسنا، سأخبرك بالحقيقة، ولدت سارة بنقص طبيعي في كليتيها".
واغتم وجه جويل، وقال:
"استمري!"
وبدت راشيل، وكأنها تبحث عن الكلمات، وقالت:
"حسنا... نحن... أنا... لم أكن أعلم في أول الأمر، كانت تبدو طفلة عادية صحيحة البدن، ولكنها لم تكن تنمو بما يتلاءم مع عمرها. ولم يكن وزنها يزداد بالسرعة المطلوبة. ولكن ذلك يحدث أحيانا مع الكثيرين من الأطفال... ونظرا لهزال جسمها كانت عرضة للعدوى وكان أضعف فيروس يجعل حرارتها ترتفع ويجعلها تعاني من اضطرابات معوية. وأخيرا اكتشفنا العلة الحقيقية".
واسترخت راشيل بوهن في أحد المقاعد المريحة، وهي تحدق بلا غاية في النار المتوهجة في المدفأة، وحركت كتفيها وقالت:
"فحصها الأطباء والاخصائيون، وبذلوا كل ما يستطيعون ولكن لم يكن ذلك كافيا على الاطلاق، ومنذ ستة شهور كانت

تعاني من حالة عطل كلوي، وعند ذلك بدأت جلسات التنقية بالكلية الصناعية".
اذ ذاك أخذ جويل يقطع الغرفة جيئة وذهابا بشيء كبير من التوتر، وقال:
"وحتى عندئذ لم تفكري على الاطلاق في أن تطلعيني".
ونظرت راشيل اليه نظرة تدافع بها عن نفسها، وهي تقول:
"ولماذا أفعل ذلك؟ لم يكن همك... كان همي أنا. فأنا التي قررت أن أحضر سارة الى الوجود".
"ولكن في مثل تلك الظروف!"
"لم تكن للظروف علاقة بأي شيء... كانت فقط غلطة من غلطات الطبيعة، وربما كان ذلك عقابا على فعلتي".
ودمدم بوحشية:
"لا تحدثني بمثل هذا الهراء... ماذا فعلت غير أنك هجرتني!"
"حسنا! وحتى ذلك... ربما يكون بالوراثة... من المحتمل أن أبوي أيا كانا..."
"ولسارة أبوان أيضا!"
وصاحت في ارتعاش:
"ولكن شيئا من ذلك لم يحدث في أسرتك... هل حدث؟"
وقطب جويل حاجبيه وهو يكرر:
"ألم يحدث؟"
ونهضت على قدميها من جديد، وصارت تمشي حول مؤخرة الأريكة، وهي تقول:
"أوه، يا جويل! لا تعذبني! حسنا، في أية حال كان ذلك هو الموقف منذ ستة شهور و..."
وقاطعها:
"وأين موقع أبي من كل هذا الذي حدث؟"
"الكولونيل فرنشاو كان يقوم بتصفية ممتلكاته ليذهب ويعيش في الخارج لاسباب صحية... وكان مصرف أبيك يتولى سائر استثماراته".
"واذاً حضر أبي ليزور الكولونيل، على ما أعتقد".
"نعم، كان كل منهما يعرف الآخر منذ سنوات في لندن".
"يا لها من مصادفة..."
وسألت في حرارة:

"هل تعتقد أنني رتبت الأمر بهذه الطريقة؟ كدت أموت من الصدمة عندما فتحت الباب ووجدت جيمس كنغدوم يقف على عتبة الدرج. وبالطبع سأل الكولونيل عني، وعندما رأى سارة..."

وتكورت قبضتا جويل، وقال:

"نعم، وبما لديه من معلومات سابقة فطن لما فعلته، ولكن ذلك ما زال لا يفسر لماذا تتزوجينه، هل وعدك بمساعدة مالية من أجل سارة؟ هل يوجد جراح مغمور في مكان ما أنتج عقارا علاجيا؟"

"لا! لا! وعلى الأقل، انه حل بسيط للغاية حقا، فان فصيلة خلايا دم أبيك تناسب سارة، وقد وافق على نقل احدى كليتيه لتزرع في جسم سارة."

٨- الزيارة

وحدق فيها جويل في رعب وهو يقول:

"ماذا؟ ولكن والدي رجل كبير في السن!"

وكانت أصابع راشيل تتحرك على ظهر الأريكة في شيء من العصبية، وقالت:

"ليس كبيرا الى هذه الدرجة... وفضلا عن ذلك فإن كليتيه سليمتان، وعلى ما يبدو فإنهما قابلتان تماما للزرع."

ومسح جويل جبهته، وقال:

"ولكن لا يمكن أن تكوني جادة... يا إلهي... وأنت لذلك تتزوجينه؟"

"هذا أحد الأسباب. لعلك تعلم يا جويل... أن رعاية طفلة مثل سارة لم تكن شيئا سهلا، ومع جيمس فإنها ستحصل على كل ميزة ممكنة."

وأطفأ جويل سيكاره، ودمدم قائلا:

"بإمكاني أن أوفر لها الميزات نفسها."

عند ذاك كانت راشيل قد بدأت تعاني من حالة هبوط في التنفس وقالت في شيء من الاذعان:

"من الناحية المالية... ربما.."

ورفع بصره اليها، وقال:

"وهل ثمة شيء آخر؟"

وحولت راشيل بصرها بعيدا عنه، وقالت:

"لن يكون بوسعك أن تفهم.."

"أشكرك، لأنني لا أفهم، لن أدعك تنفذين ذلك."

"لا تستطيع أن تمنعني."

"لا أستطيع؟ لو كنت مكانك ما بنيت خططي على ذلك."

"أرجوك، يا جويل، ألا يمكننا أن نكف عن هذا الشجار؟ أنت لا يعنيك أمر سارة، فلديك عملك، ولديك اريكا غراي."

"أرجوك ألا تدخلي اريكا في الموضوع."

"انك لا تستطيع أن تنكر علاقتك باريكا."

"ليس في نيتي ذلك... فاريكا وأنا شخصان راشدان، وإنني أعترف أنه من وقت لآخر.."

"لا أريد أن أعرف."

ووضعت يديها على أذنيها، ونهض ووقف خلفها حتى أحست بدفء أنفاسه.

وتكلم في صوت أجش:

"انك لا تريدين أن تعرفي، لا تحاولي أن تنكري! ما كان يحق لك أن تهجريني، أعترف أنني تصرفت بشيء من الانانية ولكن حاولي أن تنظري من زاويتي. كنت أريدك، هل تعرفين ذلك؟ اقسم لك أنني في حياتي ما أحببت امرأة أخرى حبا حقيقيا."

كانت هناك حلاوة سائلة تخفق في عروقها، وأسرع نبضها، وتهاوت ساقاها وجذبت نفسها بعيدا عنه، واستدارت لتواجهه، وقالت:

"لا تحاول اغرائي بالكلام، يا جويل!"

وهز كتفيه وضاقت عيناه وانفرجت قدماه، وقال:

"لن يكون بوسعك أن تسيري في هذا الشوط الى نهايته، يا راشيل."

"سأمضي فيه الى النهاية. ولن يفلح اغراؤك في صدي عن ذلك."

وحدق فيها جويل، وقال:

"انني على استعداد لأن أهب سارة احدى كليتي."

وقالت في سخط:

"لا! لا أريد شيئا منك."

وسألها بلهجة أشد حرارة:

"ولا حتى ما يصلح صحة ابنتك؟"

"سوف تكون سارة بخير."

"وإذا فشل نقل الكلية؟ كيف تكون الحال؟"

وكزت بأسنانها على شفتها، وقالت:

"ولماذا يفشل؟"

"ما رأي الأطباء؟ ما النسبة المحتملة للنجاح؟"

وحركت راشيل رأسها في يأس، وقالت:

"انهم... يقولون شيئا معقولا... لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك."

"إذاً، أنت تضحين بنفسك من أجل الطفلة. ماذا لو فشلت العملية. هل تجازفين بكل شيء بلا مقابل؟"

ورفعت راشيل يدها، وقالت:

"جيمس وأنا لن نتزوج حتى تنتهي العملية."

"أوه! حقا؟ اذاً أنت تتخيلين أنه اذا فشل كل شيء فسوف يقبل أبي أن ينهي الصفقة بينكما؟"

وقطب حاجبا راشيل، وقالت:

"لماذا؟ طبعا!"

ونظر جويل اليها نظرة اشمئزاز وقال:

"انك لست جادة."

"ماذا تقصد؟"

وهز جويل رأسه، وقال:

"حسنا، عرفت من الآنسة كلاي أن أبي بصدد أن يقيم حفلا فاخرا للخطوبة؟"

"أعتقد ذلك."

ونشق جويل نفسا عميقا، وقال:

"وتعتقدين أنه بعد أن يشاع الخبر يقبل أبي بإنهاء الصفقة اذا لم تكن نتيجة العملية ناجحة؟"

"ولم لا؟"

"أوه، يا راشيل! انك لست جادة!"

واسترخى جويل على الاريكة، وجعل يده تتخلل شعره، وقال:

"راشيل! الرجال مثل أبي يحرصون على صورتهم أمام الرأي العام، وإذا ما قدمك أبي كخطيبته آنذاك يكون كسبا كبيرا لرجل في عمره. وإذا حاولت أن تنهي الخطوبة، لن يترك فرصة في الصحافة دون أن يستغلها لفضح أمرك، إذا خطبت لأبي فإن عليك أن تقولي الوداع لحريتك."

وحدقت راشيل تجاهه:

"انك تقول هذا لتخيفني."

وارتفع حاجباه الأسمران:

"لو كنت في مكانك لما جزمت بذلك.."

"ما الذي يعنيه هذا بالنسبة اليك؟ لماذا تهتم سواء كان ذلك سيحدث أم لا؟"

وأجابها:

"أنا لم أكف أبدا عن السعي للوصول اليك. أنا أريدك دائما، هنا، والآن."

كانت عيناه غارقتين في الانفعال، وصارت راحتا راشيل تضغطان بيأس على كتفيه، وخطرت لها بشرة جيمس، وكيف كانت تزخر بالخطوط والعقد..

وأمسك جويل بإحدى يديها...

.. وكان المجهود الذي تحتاجه لتدفع بنفسها بعيدا عنه شيئا أكبر من طاقتها، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تخلص نفسها منه، ووقفت تتنفس بشدة وشعرها طليق كالحرير حول وجهها المتورد، وقالت في ثورة عارمة وهي تجذب قميصها:

"إنني أكرهك يا جويل، اخرج من هنا! ليتني ما رأيتك ثانية."

كان جويل يجلس ويداه تتدليان في استسلام، ونهض ببطء وقد تجمدت نظرة عينيه، وعلق ساخرا، وهو يلتقط سترته ويرتديها:

"آسف، لا أستطيع أن أضطرك لتأخذي بالاختيار الثاني، أما بالنسبة الى الاختيار الأول فإنك تسخرين من نفسك يا راشيل! انك لا تكرهينني ولكن إذا أصررت على ذلك، فسوف أكرهك."

ظلت راشيل يقظة طوال الليل، كان جزءا نزويا فيها يحن الى جويل، وحاولت يائسة أن تهرب من عذاب تلك الافكار التي لا تستطيع أن تصرح بها، لم تكن قد سمحت لنفسها على الاطلاق أن تتذكر تلك الليلة التي أمضياها سويا والتي كانت تحجب بين طياتها قناع القدر والاذلال. لكنها الآن، تتجاهل تلك الذكرى... لو أنه فقط طلبها للزواج... ولكن مثل تلك السعادة كانت سرابا مع رجل مثل جويل، كانت تفهم أنه يريدها. لكنها لم تكن تريد علاقة أشبه بالرمال المتحركة تبنى على الجاذبية وحدها. كانت تحب جويل، بكل الرقة والعاطفة، ولكنه أخذ حبها ودمره.

وفي الصباح أخبرت راشيل سارة أنها سوف تصطحبها في جولة الى السوق، كانت تريد ان تشتري لها بعض الملابس الجديدة، ولكن الدافع الحقيقي هو أن تخرج من الشقة قبل أن يحضر جويل، وسألت سارة أمها، وهما يهبطان الى

محطة الحافلة:

"ألن نرى جويل اليوم؟"

وأحست راشيل بشعور من القلق، ولكنها أجابت بحزم:

"لا! جويل لديه عمل وليس لديه وقت للحضور الينا."

"ولكنه قال في الليلة الفائتة انه سيأتي ويصحبني الى حديقة الحيوان اليوم."

وأجابت راشيل:

"لا أعرف، سوف يأخذك العم جيمس الى حديقة الحيوان اذا طلبت منه ذلك."

وأجابت سارة:

"لا أريد أن أذهب مع العم جيمس."

لم تكن جولة التسوق ناجحة، كانت سارة ترفض أن تقيس الملابس الجديدة، وكانت ملامحها الشاحبة وفمها الرافض يجعلان الملابس الجميلة تبدو أقل رونقا، وتناولتا وجبة الظهيرة في المدينة، وعندما رجعتا الى الشقة، كانت سارة تمتلك ثلاثة فساتين، وبذلات ذات سراويل، وبعض الملابس الداخلية وسترة جديدة ذات فراء وقلنسوة، ومعطفا غاليا من الجلد للمناسبات الخاصة، ولكنها لم تكن تكترث لكل ذلك.

لم يكن هناك أثر لجويل. وكانت راشيل مرتاحة لذلك، أما سارة فبعدما أكملت راشيل تهيئتها في مخدعها للنوم، قالت:

"أفضل أن يقيم معنا جويل بعد أن تتزوجي، وهذا قراري."

وروعت راشيل عندما سمعت ذلك، وقالت:

"لا تكوني سفيهة يا سارة!"

"لماذا؟ ستكونين أما له أيضا؟ ألا تفضلين ذلك؟ لماذا لا يعيش معنا؟"

"شرحت ذلك من قبل يا سارة! ان لجويل بيته الخاص، وفضلا عن ذلك فاننا سوف نعيش في بلاد اليونان."

"وأين بلاد اليونان؟"

"قلت لك يا سارة، انها على مسافة.. بعيدة جدا، حيث تشرق الشمس طول الوقت."

"أنا لا أريد الشمس أن تشرق طول الوقت."

"لا حيلة لي في ذلك!"

"احب أن أبقى في انكلترا."

"ولكن العم جيمس، يريد أن يعيش في بلاد اليونان، إن

له جزيرة، كما قلت لك، والمياه جميلة ودافئة، وتستطيعين أن تسبحي."
"أنا لا أستطيع السباحة."
"سوف تتعلمين."
لا أريد أن أتعلم."
"سارة... أحذرك."
"لماذا يكون علينا أن نذهب لنعيش في بلاد اليونان ذات الهواء الرديء؟ لماذا لا تتزوجين جويل وتعيشين في لندن. أوه... ان ذلك يكون شيئا بديعا... وسيكون أبي عندئذ."
"سارة!"

وحدقت فيها سارة بفضول وقالت:
"ما الحكاية؟ ليس معنى أنك تتجادلين معه باستمرار أنكما لن تصبحا صديقين."
"سارة! من فضلك!"

ووضعتها راشيل في الفراش، وأحكمت عليها الغطاء، وقالت:
"سارة! سارة! أرجوك! لا أريد أن أسمع مرة ثانية شيئا عن جويل كنغدوم. سوف أتزوج العم جيمس. وسوف نعيش في بلاد اليونان... هل هذا واضح؟"

كان وجه سارة مقطبا، ولكنها أومأت برأسها، وقال:
"نعم! يا ماما!"
"حسنا، والآن تصبحين على خير!"

وفي اليوم التالي استيقظت وفي رأسها صداع، ولم تكن تشعر بالرغبة في الاستيقاظ وإعداد الفطور وحتى وجه سارة الحزين لم يستطع أن يبعث فيها النخوة. وكان من الواضح أن الطفلة لم تنس بعد ما دار بينهما من حديث في المساء السابق فهي لم تذكر اسم جويل بالفعل ولكنها كانت تسرع الى النوافذ كلما سمع صوت لتستطلع الأمر، والحقيقة أن راشيل ذاتها أصابها شيء من الدهشة عندما لم يتصل بها جويل. لم تكن تتوقع أن يفقد الأمل بتلك السهولة ولم يكن الجو في الخارج مشجعا، وبقيتا في الشقة. وذهبت سارة في النهاية الى الفراش، وهي في حالة من الكآبة..

وعندما حان ظهر اليوم التالي وامتد الوقت الى ما بعد الظهيرة ولم يسمع شيء عن جويل بدأت تشعر بالقلق،

أما سارة فكانت في حالة من الكسل لم تفكر معها حتى في اللعب بدميتها هيلغا بل رفضت الخروج في صحبة أمها لشراء بعض الخبز، وكان التلفزيون يعرض برامجه. لكنها لم تكن تلتفت اليه، وكانت وجنتاها أكثر شحوبا عن ذي قبل. كانت أمامها فترة تمتد بقليل لأكثر من الأربع والعشرين ساعة لتدخل المستشفى ثانية للعلاج، ولم تكن راشيل قد رأتها من قبل في مثل تلك الكآبة، واتجه غضبها الى جويل، لقد كان بإمكانه أن يتصل بالطفلة ولكنه لم يفعل!

وبعد أن شربا الشاي اقترحت راشيل أن تخرجا للسير في شارع ريجنت، ولم تكن حديقة ريجنت بارك تبعد كثيرا، وكانت تأمل أن يعيد الهواء النقي الى وجنتي سارة بعض البهجة ولكن سارة رفضت الخروج، وقالت:
"اخرجي أنت، إنني لا أحس برغبة في المشي."
"ولكنك يا سارة، لم تخرجي منذ يومين."

ونظرت سارة اليها، من خلال عينين قاتمتين عاصفتين.
"وجويل لم يحضر هنا منذ ثلاثة أيام، ماذا قلت له؟ لماذا أغضبته؟"

وضغطت راشيل راحتيها سوياً، وقالت في اعتراض:
"لم أغضبه، أعتقد أنه مشغول يا سارة، ومع ذلك سوف يعود ثانية."
"حقا؟ إذا سوف أنتظر هنا. فلربما يتصل هاتفيا، أليس ذلك محتملا؟"

وتنهدت راشيل وقالت:
"هذا سخف يا سارة! لا شأن لنا وجويل."
"لقد أحببته، وأحبني..."
"أنا متأكدة أنه أحبك يا عزيزتي، ولكن ذلك لا يعني شيئا. عليك أن تفكري في المستقبل يا سارة فخلال أسابيع قليلة ستسافر الى الخارج وعندئذ.."
"قلت لك إنني لا أريد السفر للخارج."

ورفضت راشيل أن تعلق على ذلك، أخذت تذرع الغرفة بقلق واستندت سارة على أحد مرفقيها، وصعدت الى الأريكة، وقالت:
"يمكنك أن تطلبيه بالهاتف، ألا تفعلين ذلك يا مامي؟"
"لا! سارة، يا حبيبتي لا أستطيع."

"لماذا لا تستطيعين؟ ألا تعرفين رقم الهاتف؟"

كان بوسع راشيل أن تكذب تلك الكذبة الصغيرة، ولكن راشيل لم تستطع أن تكذب، وفضلا عن ذلك فان سارة كانت على درجة من الذكاء، وكانت ستجد طريقة للتوصل الى الرقم.

"ربما يكون لديه ناس في شقته... ضيوف مثلا... وربما يكون لديه عمل."

"إذن سيجيب هيرون على الهاتف."

وهزت راشيل رأسها، فقد كان لدى سارة لكل سؤال جواب.

"وماذا تنتظرين مني أن أقول له؟"

"قولي له... انني أريد أن أراه."

وأخذت راشيل تجتاز السجادة جيئة وذهابا بقلق. كيف يجوز لها أن تطلب جويل؟ كان ذلك من وجهة نظرها شيئا مضحكا وبصفة خاصة بعد الطريقة التي افترقا بها، وقالت:

"لا أستطيع أن أفعل ذلك، يا سارة."

"تعنين أنك لا تريدين أن تفعلي ذلك."

وعرفت راشيل أنها كانت على وشك أن تصاب بحالة من الهستيريا، وقالت لها:

"كوني متعقلة يا سارة!"

"انصرفي بعيدا عني! لا أريد أن أراك، أريد أن أرى جويل."

وتكورت قبضتا راشيل في عصبية واجتازت الغرفة، ورفعت السماعة، وأدارت الأرقام. فرغم السنوات لم تنس أرقام هاتف جويل. وهيء لها أن الجرس سيرن طويلا على الطرف الآخر وعندما رد هيرون كادت أن تغلق وتعيد السماعة الى مكانها، ولكن وجه سارة المبتل بالدموع أجبرها على أن تذكر اسمها وتطلب التحادث مع السيد كنغدوم، ورد هيرون بأدب:

"آسف فالسيد كنغدوم يستريح، وطلب ألا يزعجه أحد. هل من رسالة؟"

"وكزت راشيل على أسنانها... يستريح! ولا يريد أن يزعجه أحد؟ ترى من يكون معه كي يطلب ألا يزعجه أحد؟ وأجابت:

"لا! ليس ثمة رسالة."

وعندما أعادت السماعة، انتصبت سارة وقالت:

"ما الخبر؟ لماذا لم تتحدثي معه؟"

"إنه يستريح، لا أعتقد أنه بخير."

ولم تكن تعرف كيف يكون رد فعل سارة التي انفجرت تقول:

"لماذا؟ هل هو مريض؟ هل تذهب لنراه؟"

"لا، يا سارة."

"لم لا؟"

"لأننا لا نستطيع، ولكن سوف يخبره هيرون أنني طلبته عندما يستيقظ."

وردت سارة وقد انهمرت الدموع من عينيها:

"لا أصدقك! إنك فقط تقولين ذلك."

"لا!"

ولم تكن راشيل تعرف كيف تقنعها وبدأت سارة تسأل أمها:

"لماذا لا تحبين جويل؟ لماذا لا تريدين أن تذهبي لزيارته؟"

"لا نستطيع أن نفعل شيئا يا سارة حتى يتحسن."

"لم لا؟"

"لأننا لا نستطيع."

"ومتى يتحسن؟"

"وكيف لي أن أعرف ذلك؟"

وانسلت سارة من فوق الأريكة، وجاءت اليها:

"أرجوك يا مامي! أريد أن تذهب الى شقته لنراه، سوف أكون بخير إذا فعلنا ذلك ويمكننا أن نأخذ له بعض الزهور."

واضطرت راشيل أن تقمع الرد الذي كانت ستجيب به، وقالت:

"ومن أين نستطيع أن نحضر الزهور في هذا الوقت من المساء؟"

"إذن لنحضر بعض الحلوى."

أوشكت راشيل أن تفقد صوابها، بينما يبدو كل شيء غاية في البساطة من وجهة نظر سارة، ونظرت راشيل بقلق الى ساعتها: السادسة والنصف. ولم تستطع أن تصدق عينيها.

ورأت وجه سارة الصغير يحدق فيها بنظرة متوسلة، واتخذت القرار فجأة، لم لا تأخذ الطفلة الى مسكن جويل؟ هيرون هناك. وسوف يتلقى الأوامر من سيده... وعندما تسمع سارة كل شيء منه فربما يتضح لها أن جويل ليس الملاك الذي كانت تتخيله... وقالت في شيء م[illegible]

"حسناً... سوف نذهب الى مسكنه... ولكن إذا ما رفض هيرون أن يسمح لك برؤية جويل فعليك أن تتقبلي ذلك. هل تفهمين؟"

وارتعدت شفتا سارة، وقالت:

"هل يعقل أن يفعل ذلك؟"

"لا أعرف، سيكون عليك أن تنتظري حتى تعرفي بنفسك."

كانت راشيل تتكلم عن عمد حتى تتهيأ لأسوأ ما يمكن أن يصادفها. واستقلتا سيارة أجرة الى ذلك المبنى الفاخر الذي يطل على حديقة ريجنت بارك والذي يشغل جويل منه الشقة القائمة فوق سطحه، وكانت خبرة مؤلمة لراشيل، اذ تذكرت آخر مقابلة بينها وبين جويل في شقته، وكانت تلك الذكرى تقترن بالحزن والاذلال...

واستقلتا المصعد، وتردد صدى قرع الجرس داخل الشقة وتصلبت عضلات راشيل في شيء من العصبية لما قد يحدث بعد ذلك. ولكن لم يصدر من داخل الشقة أي صوت يجيب...

ونظرت راشيل الى وجه سارة المضطرب، ودقت الجرس من جديد بشيء من التصميم وبدأ وجه سارة يتغضن بعد المحاولة الثالثة وسألت وهي تبكي:

"إنه غير موجود؟ هل تظنين ذلك؟ انه ليس متوعكا على الاطلاق. كان هيرون يدعي ذلك فقط."

ولم تكن راشيل تعرف كيف تجيبها، كان واضحا أن الموقف سوف يساعد بالفعل على أن تتحرر سارة من الوهم، وكان ذلك ما أرادته ودمدمت في شيء من الغرابة:

"من المحتمل أن يكون هيرون قد خرج... ومن المحتمل أن يكون جويل نائما."

وأخرجت سارة زفرة من أنفها وقالت:

"لو كان ذلك... لسمع جرس الباب."

"نعم، ولكنه قد لا يأتي ليجيب."

وسمع صوت الباب ينفتح من خلفهما، فاستدارتا في دهشة، وارتفع صوت سارة:

"جويل! إنك هنا!"

كان جويل يستند متثاقلا الى الباب، وهو يحاول أن يقف بجهد كبير، لحيته طالت على مدى يومين مما أضاف شحوبا الى فكيه، وكان يلبس إزار حمام وضعه على جسمه

بطريقة متسرعة، وقد بدت بعض حبات العرق على جبهته، شعره أشعث، ومن الواضح أنه في حالة صحية سيئة، ودمدم وهو يزيح شعره عن جبهته:

"آسف، لم أكن أتوقع أن يزورني أحد، وقد انصرف هيرون."

واستجمعت راشيل رباطة جأشها:

"إننا آسفتان أيضا يا جويل، أنا وسارة أردنا ذلك... وكانت قلقة عليك."

وخطا جويل الى الخلف مستندا الى الحائط وقال:

"ألا تدخلان؟"

وكزت راشيل على شفتها وقالت:

"ربما يكون من الأفضل ألا نفعل."

وقال جويل، وهو يجفل من تقلصات أصابته:

"أرجوكما أن تدخلا، سوف أكون بخير، فقط أعاني من صداع قوي."

كانت راشيل تنظر اليه بشيء من الشك. ولكنه كان يرتعش وتأكدت من كونه لا يصطنع الصداع، وتصورت المسألة لا بد أن تكون حالة الصداع النصفي التي كانت تصيبه. وأمسكت بيد سارة. ودخلت الى الشقة، وأخذت تهبط الدرج الى غرفة الجلوس الرئيسية، كان ذلك الخطو يعود بها أدراج الزمن، غير أن السجادة السميكة، كانت جديدة وكانت تنسجم مع الأريكة المخملية الطويلة المقوسة ومع الكراسي الوثيرة الأنيقة. وكانت ابراج لندن وسطوح المباني تبدو من خلال الستائر الطويلة خلف النوافذ الزجاجية المعدنية.

وأغلق جويل الباب، وأسند ظهره إليه، وأخذ يحكم حزام إزار الحمام، كانت سارة خلال ذلك قد أطلقت يدها من يد راشيل وأخذت تستكشف المكان الجديد.

"سارة!"

ولكن جويل أشار اليها بألا تقلق، وقال:

"لا تقلقي، أستأذنك بضع دقائق، أصلح فيها من نفسي بعض الشيء."

وقالت راشيل في شيء من الحرج:

"لا نريد أن نزعجك، هيرون أخبرنا أنك تستريح و..."

"هيرون؟"

"اتصلنا بك هاتفيا منذ حوالي نصف الساعة.. وهكذا

عرفنا. ربما ما كان ينبغي أن نأتي."
وحدق جويل فيها لحظات قليلة. وأخيرا لاح في عينيه شيء من الفهم:
"أستطيع أن أتصور ما فكرت فيه."
وطأطأت راشيل رأسها، وانتهزت سارة الفرصة لتتدخل، وتقول له في شيء من اللوم:
"لماذا لم تحضر لتزورنا؟ قلت إنك ستفعل!"
وحول جويل انتباهه الى سارة، وهبط الدرج الى الجزء الرئيسي من الغرفة، وقال لها في رقة:
"كنت أنوي ذلك، لكنني كنت مريضا خلال اليومين الماضيين، هل اشتقت الي؟"
ووضعت سارة يديها على كتفيه، وأجابت:
"نعم، وانتظرتك لتأتي، وعندما لم تحضر شعرت بالاعياء."
وغامت عيناه، وضمها إليه، وهو يقول:
"صحيح؟ كانت هذه أول مرة يضم الطفلة اليه بتلك الكيفية، ولم تستطع راشيل أن تتحمل رؤية ذلك المشهد، واستدارت واتجهت الى النافذة، ونهض جويل بعد دقيقة، وقال:
"سأذهب لأرتدي ملابسي."
واستدارت راشيل، وقالت:
"لا داعي... يمكننا أن ننصرف... اطمأنت سارة والأفضل أن ترقد في الفراش لتستريح..."
ونظر اليها جويل، وقال:
"أستطيع أن أرتدي بعض الملابس، وأستطيع أن أتحمل الموقف اذا كنت أنت تستطيعين ذلك..."
وضغطت راشيل راحتيها على وجنتيها، ودمدمت:
"آسفة... ظننت بك ظن السوء، وآسفة لازعاجك. لا داعي لأن تشغل نفسك بنا..."
أخذت راشيل تتجول في الغرفة كما كانت تتصرف سارة، وكأنها تجدد ذكراها... كم أحبت هذه الغرفة فيما مضى! اتساعها وارتفاع جدرانها. أناقتها.
ورجع جويل حليق الوجه أنيقا، أما شعر رأسه فقد أصلح تماما بالفرشاة، وكان يبدو نحيلا جذابا وهو يرتدي سرواله المتموج البني القاتم وقميصه القمحي المصنوع من حرير سميك، ومع ذلك كانت وجنتاه الشاحبتان والحلقات

القاتمة حول عينيه تكشف أنه لم يستكمل شفاءه بعد. وقال وهو يتأرجح عند المدخل:
"والآن... هل أحضر لك شرابا؟"
واتجهت اليه لتأخذ بذراعه ولتقوده تجاه الأريكة، وقالت:
"تعال، واجلس، سوف أحضر أنا المشروبات، أي شراب تريد؟"
وغاص جويل في الاريكة دون معارضة، وأسند ظهره، وقال وعيناه طارفتان:
"يكفيني شراب بارد منعش، إذا سمحت، لم يكن ثمة ثلج في الوعاء، واجتازت راشيل باب المطبخ تاركة جويل وسارة لتحضر بعض الثلج من الثلاجة، وتذكرت كيف كانت تعد وجبات العشاء لنفسها ولجويل هنا، وكيف كانت تجعل جويل يجفف لها الصحون وكيف كان ذلك ينتهي...
وسكبت كأسا من شراب الليمون لسارة، وآخر من الليمون الحامض لجويل، وكأسا آخر لنفسها، وشرب جويل نصف كأسه بطريقة تدل على أنه كان بالفعل يعاني من الظمأ. وقال:
"كنت تواقا الى هذا..."
وسألته راشيل بقلق:
"هل أكلت شيئا اليوم؟"
هز رأسه، وهو يرتجف:
"لا أستطيع أن أذوق الطعام."
وشربت سارة كأسها، ثم تسلقت على ركبته متجاهلة اعتراض راشيل، وقالت:
"هل تأتي غدا لتزورنا؟"
وداعب جويل خصرها الصغير وقال:
"سوف نرى..."
وقالت راشيل بعد أن جلست على السجادة:
"ولكنك لا بد أن تأكل شيئا!"
ونظر اليهما جويل بطرف عينيه، وقال بهدوء:
"هل تعدينني بألا تتزوجي أبي؟"
وأحكمت يديها حول كأسها، وهي تقول:
"ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك."
ودمدم يقول:
"أريد الفرصة لأبذل ما أستطيع من أجلك، أرجوك، أريد

هذه الفرصة."

"لا!"

ونهضت راشيل ثانية، ودق جرس الباب ونظرت الى جويل بعينين مستفسرتين، وعلت وجهه علامات الاستسلام وقال وهي تتجه لتصعد الدرج:

"لا تفتحي الباب! لا أريد أن أرى أي شخص آخر."

ولكن سارة بحماسها العادي لفتح الأبواب، تسللت عن ركبتيه، واتجهت لتفتح الباب قبل أن يلحق بها أي منهما ليمنعها من ذلك.

كانت اريكا غراي تحدق الى الطفلة في ذهول، وتصلبت ملامحها الدقيقة عندما رأت راشيل، وقالت بشيء من اللامبالاة:

"هل قطعت عليكم شيئا؟"

ووقع بصرها على جويل، وقالت:

"أوه جويل، حبيبي! هل تشكو من شيء؟ لماذا لم تخبرني؟ حاولت الاتصال بك، ولكن كل ما كان يقوله هيرون أنك لا تريد أن يزعجك أحد..."

كانت سارة قد أغلقت الباب وهي تحدق بشيء من الاشمئزاز في المرأة التي كانت تلتصق بذراع جويل. ونظرت الى أمها، ولاحظت راشيل الرعدة التي كانت تنتاب شفتها السفلى، وقالت في هدوء:

"أعتقد أننا يجب أن ننصرف، يا سارة... فات موعد نومك."

لكن جويل ابتدرها قائلا:

"لا! انتظري! راشيل لا تنصرفي الآن!"

وقالت اريكا بصوت ينم عن السخرية العميقة:

"لو أن وجودي غير مرغوب فيه..."

وكانت راشيل تحس باحساس مخيف، وقالت:

"لا! ليس كذلك، سارة!"

وألقى جويل نظرة قلقة تجاه اريكا، وقال:

"نحن لم ننه الحديث بعد، يا راشيل! أرجوك أن تنتظري."

وزمت سارة شفتيها، وقالت:

"أريد أن أذهب الى دورة المياه."

وعبرت اريكا عن احساس بالاشمئزاز، ونظر جويل

الى الفتاة الصغيرة وقال:

"إنك تعرفين أين هي... لقد صحبتك إليها في المرة الماضية... هل تذكرين؟!"

وأومأت سارة بالايجاب، وخرجت من الحجرة وعندئذ لفت راشيل حزام حقيبة يدها حول معصمها، واتجهت نحو الباب تستعد للرحيل.

وقطب جويل قسمات وجهه وقال:

"راشيل! (وأمسك بظهر الاريكة يستند عليها)، راشيل!.. أرجوك بحق الله!.."

وحدقت اريكا تجاهه في دهشة وقالت:

"جويل!.. ماذا يحدث هنا؟"

وأدار جويل عينين معذبتين تجاهها، وقال بشدة كما لو كان قد توصل الى قرار:

"نعم!.. لقد حان الوقت لتعرفي كل شيء..."

وحاولت راشيل أن تسكته فقالت:

"جويل!"

ولكنه تجاهلها قائلا:

"هناك شيء يجب أن تعرفيه.. يا اريكا!.. لقد عرفت راشيل منذ سنوات.. عندما كانت طالبة في الكلية هنا.. وكانت قد قابلت أبي في تلك الأيام أيضا. ولكن سارة ليست كما تتخيلين طفلة من أبي.. إنها مني أنا.. هل تفهمين.. سارة ابنتي!!"

٩- السقوط

خيم الصمت على الثلاثة نصف دقيقة بدت كأنها دهر، وعادت سارة ثانية الى الغرفة. كانت تركز كل اهتمامها على البقعة التي احتلت مكانا بارزا في مقدمة سترتها القرائية القرمزية ذات القلنسوة، وهمست في كآبة والدموع تسيل على وجنتيها:

"أصابني دوار يا ماما... أنظري ما حدث لسترتي."

وأحست راشيل بشيء من ارتياح في أعماقها لهذه الشكوى باعتبارها نوعا من التحول، وقالت وهي تتجه إليها:

"أوه، يا حبيبتي، لا تكترثي، سوف تزول بالغسيل."

وقالت سارة:

"... أعتقد أنني تسببت في فوضى... هناك...."

وأشارت الى الردهة خلفها، وأصدرت اريكا حركات تعبر عن ضيق صدرها. ولكن جويل أسكتها بنظرة منه، وقال:

"لا تكترثي يا محبوبة... سوف يعنى هيرون بما حدث."

"سوف أعنى أنا بها. أين أجد مواد التنظيف؟"

وقال بنغمة متصلبة:

"قلت إن هيرون سيعنى بذلك، لدينا مسائل أخرى نناقشها يا راشيل!"

وعلقت راشيل:

"ليس الآن، ألا تظن أنك قلت ما فيه الكفاية؟"

وقالت اريكا:

"إنني أؤيد ذلك!"

ولكن جويل قاطعها قائلا:

"اخرسي!"

واتجه الى حيث كانت راشيل تقود سارة نحو الباب، وهو لا يكاد يحفظ توازنه:

"راشيل، الى أين تذهبين؟"

"أعتقد أن إجابة السؤال واضحة، إنني أعود بسارة

الى البيت، تصبح على خير يا جويل، وأنت يا آنسة غراي!"

وصاح جويل:

"راشيل!"

كانت راشيل تستحث سارة عبر الباب ولم تكن لديه القوة لمنعها من الخروج.

وفي اليوم التالي كانت سارة قد شفيت تماما من الدوار، مما طمأن أمها. وكانت السيدة تالبوت تنتظر راشيل عند عودتها وقالت في اعتذار:

"آسفة، يا سيدة غيلمور لأنني تأخرت.."

واصطنعت راشيل الابتسام.. وقالت:

"كلا، ولكن المسألة تبدو غريبة نوعا ما. امرأة راشدة تحتاج الى حاضنة تعنى بها!"

وتغير لون السيدة تالبوت، وقالت:

"أوه! لا أعتقد أن السيد كنغدوم ينظر الى الموضوع هكذا، ولكن لندن يمكن أن تغدو مكانا مخيفا لمن لم يعتد الحياة فيها."

وتمنت راشيل لو أخبرت مديرة المنزل بأنها سبق أن عاشت في لندن لسنوات في وقت كانت فيه أكثر جاذبية مما هي الآن، ولكنها قررت ألا تفعل ذلك. ودق جرس الهاتف، وذهبت راشيل لتجيب على المكالمة. كانت تتوقع أن يكون المتكلم جيمس. لكنها سمعت صوت جويل يقول:

"راشيل! راشيل! أهذا أنت؟"

ونظرت راشيل بارتباك الى السيدة تالبوت التي كانت تخرج خيطان الصوف من حقيبتها، وواصلت المحادثة:

"ماذا تريد؟"

"أريد أن أراك.."

ولهثت راشيل:

"سارة.."

"سارة في المستشفى، وقد تأكدت من ذلك، أوه! انني أعرف أن السيدة تالبوت عندك، ولكنك لست سجينة، بامكانك أن تخرجي."

"لا يمكنني ذلك."

"إذا أحضر اليك."

"لا تكن مخبولا!"

"واذا؟"

وفكرت راشيل في يأس:

"هل أنت في الفراش؟"

"لا، ولكن هل لذلك أي دخل في الموضوع؟"

"نعم، لأنني عندئذ لن أحضر."

وكان جويل يبدو ساخطا وقال:

"حسنا، لست في الفراش، وفضلا عن ذلك هيرون هنا."

"وكيف أعرف؟"

"هل تريدين التحدث اليه؟"

"لا! (ونظرت مرة أخرى الى مديرة المنزل) وماذا عن اريكا؟"

"اتركي لي اريكا، يا راشيل!"

"حسنا."

كان يسعدها أن تخرج من الشقة، وكان جويل مريضا وليس هناك ما يخيفها. وأعادت راشيل السماعة الى مكانها، وكادت تخرج عن صوابها عندما رن الجرس فجأة للمرة الثانية ورفعت السماعة، وقالت:

"نعم؟"

"راشيل؟"

كان الصوت صوت جيمس، وواصل الكلام يقول:

"أين كنت إذا؟.."

"ماذا تعني؟"

"مضى وقت طويل وأنا أحاول الاتصال. وفي هذا المساء اتصلت مرة فلم يجبني أحد، وفي المرة الثانية كان الخط مشغولا، ما الذي يحدث؟!"

"لا شيء يا جيمس! في الليلة الفائتة.. سارة وأنا خرجنا لفترة. ولكنا عدنا بعد الثامنة بقليل."

"كان لدي اجتماع في الليلة الفائتة.. ولم أستطع الاتصال بعد السابعة والنصف. وعندما انتهى الاجتماع ظننت أنك في الفراش."

"أفهم، وبلعت ريقها بشيء من التشنج وأضافت: آسفة."

"وأين كنت الليلة؟"

"كنت في صحبة سارة الى المستشفى؟"

"أليست السيدة تالبوت عندك؟ لماذا لم تجب؟"

وتنهدت راشيل:

"حضرت متأخرة، آسفة اذا كنت قد أمضيت وقتا فيه شيء من الاحباط."

"وأنا أيضا آسف، ولكن منذ لحظة كان الهاتف مشغولا، مع من كنت تتحادثين؟"

وتعثرت الكلمات في حلقها، وصاح:

"ماذا حدث؟ ألا تريدين أن تتكلمي؟"

وعرفت راشيل أن عليها أن تخبره، وصاحت:

"لقد كان المتحدث جويل، اذا كنت تصر على أن تعرف."

وقال باقتضاب:

"ماذا كان يريد؟"

"أوه، كذا، وكذا."

"هذه ليست اجابة، يا راشيل!"

"إنه يريد أن يراني."

"لماذا؟"

"ليتحدث عن سارة، على ما أعتقد."

"هل عرف بحالتها المرضية؟"

"نعم!"

"أنا سعيد بأمانتك في هذا الخصوص، لأنني تحدثت مع جويل بنفسي وأعرف أنه علم بكل شيء."

"أفهم."

"ولماذا أخبرته؟"

"هو اكتشف ذلك."

"من سارة؟ عندما أخذها الى مسكنه؟"

ونطقت راشيل، وهي تلهث:

"من خلال... الحديث."

"أعرف كل شيء يا راشيل... ولا جدوى من الكذب علي."

"لا أكذب عليك."

"من الأفضل ألا تفعلي ذلك."

"ما الحكاية يا جيمس؟ لماذا تتحدث بهذه الطريقة؟"

"أريد أن أعرف ما كان يقوله جويل، وكيف سيكون تصرفك عندما يتم كل شيء؟"

"ماذا تعني؟"

"لا بد أنك تعرفين أن جويل يريد أن يتبنى الطفلة!"

"يتبنى سارة؟ أنا لا أعرف ذلك."

"ربما يكون ذلك ما يريد أن يتحدث اليك عنه."
ومسحت راشيل بيد مضطربة على وجنتها، وقالت:
"ولكن."
"لم يكن يجب أن تخبريه أنها ابنته."
"ربما لم يكن يجوز لي ذلك."
"هل تريدين أن يأخذ الطفلة منك؟"
وكادت تختنق وهي تقول:
"تعرف أنني لا أريد ذلك. إنني أحب سارة يا جيمس!"
"أعرف أنك تحبينها، ولكن من الأمانة أن تعرفي كيف يفكر جويل."
"حسنا... لا تشغل بالك يا جيمس! لن يأخذ سارة. سوف تجري العملية كما اتفقنا، وسوف نتزوج بمجرد أن تشفى."
وساد الصمت لحظة، ثم قال جيمس:
"كنت أفكر في ذلك، يا راشيل، أقصد في زواجنا، ألا تظنين أنه من الأفضل أن نتزوج قبل أن تتم عملية نقل الكلية لسارة؟"
"قبل؟"
"نعم، قبل. لو أننا تزوجنا يا راشيل، لكان لي الحق الشرعي في تبني سارة باعتبارها طفلتي."
وضغطت راشيل بيدها على معدتها المضطربة، وقالت:
"لا أعرف، يا جيمس!"
"ولم لا؟ ما الفارق؟ فبعد أن نتزوج أدخل المستشفى وأجد أنا وسارة العلاج اللازم، وبعدها لن يوجد شيء يؤخر إقامتنا في هذا البلد."
لم تكن راشيل تعرف كيف تجيبه، كان رأسها يدور، وكانت في حالة من الاضطراب والقلق، وقالت:
"جيمس لا بد أن أفكر."
"تفكرين؟ لماذا؟ هل كنت تنوين أن تغيري رأيك؟"
وانفعلت راشيل بغضب وقالت:
"لا! أنا لا أفعل ذلك."
"حسنا."
"اوه جيمس! أعطني يومين لأقلب الموضوع على وجوهه، لم اكن أتوقع ذلك بهذه الطريقة المفاجئة.."
وسكت، ثم قال:

"سوف أعود خلال أيام ثلاثة، يا راشيل، هل يمكنك أن تعطيني رأيك عندئذ؟"
وزفرت راشيل زفرة تعبير عن الارتياح وقالت:
"أوه، نعم... أرجو ألا تكون غاضبا يا جيمس!"
ورد جيمس بازدراء:
"لست غاضبا، لا، ولكن أشعر بشيء من خيبة الأمل، وأرجو أن تتذكري انك تستفيدين من هذا... فعندما تصبحين زوجتي لن يستطيع انسان أن يأخذ سارة منك."
عندما وضع السماعة، التفتت راشيل الى مديرة المنزل، وقالت:
"سوف أخرج لبعض الوقت، يا سيدة تالبوت."
وبدا على السيدة تالبوت شيء من الدهشة، وقالت:
"تخرجين؟ يا سيدة غيلمور!"
وأومأت راشيل بالايجاب وقالت:
"نعم، ويعرف السيد كسنغدوم بذلك."
وأخذت تحاسب نفسها لماذا قالت هذا، لم تكن طفلة صغيرة لتحتاج أن تفسر حركاتها، وخشيت أن يكون الدور المرسوم لها في المستقبل أن تحاول دائما أن تجد الأعذار لتصرفاتها.
"حسنا.. إذا كنت واثقة من ذلك يا سيدة غيلمور! ولكن الساعة الآن بعد التاسعة."
"أعرف!"
واتجهت راشيل الى حجرتها، ولبست سترتها الجلدية، ولم تكن القميص الزرقاء كافية لوقايتها من البرد ولكنها كانت تنوي أن تأخذ سيارة أجرة عند نهاية الممر، وأنزلتها السيارة أمام المبنى وحملها المصعد الى الشقة، وضغطت على الجرس وانتظرت. لم يكن هيرون هو الذي فتح لها الباب ولكنه جويل بنفسه. كان يقف بأدب الى الداخل عندما رآها، وقال:
"ألا تدخلين؟"
ورفعت راشيل بصرها في شيء من الشك، كان قدر كبير من الارهاق قد زال عن وجهه، وكانت عيناه فقط تعكسان قسوة الألم الذي يعانيه. ولكن من الواضح أنه شفي بالفعل. وعلقت ببساطة، وهي تتوقف على الدرج الهابط الى الغرفة:
"الحمد لله أنك أحسن."

كانت الغرفة مضاءة بالمصباح، والستائر قد أزيحت لتكشف عن المنظر الشامل العريض لاضواء لندن، وواصلت راشيل:
"لماذا لم تقل لي ذلك؟ واذن كان من الممكن أن نتقابل في مكان آخر."
ورد جويل، وهو يهبط الدرج برشاقة أمامها:
"ولم ذلك؟ ان هذا المكان ليس أقل بهاء من أي مكان آخر، أخلعي معطفك، وتعالي نجلس، ماذا تشربين؟"
هزت راشيل رأسها، وقالت:
"ما الذي تريد أن تقوله لي؟ لننته من هذا أولا!"
أحضر عربة المشروبات محملة بالزجاجات والكؤوس وقال في صوت هادىء:
"أنا وأنت وحدنا هنا، يا راشيل ولا داعي للعجلة."
واتسعت عينا راشيل ونظرت تجاه الباب، وقالت:
"أخبرتني أن هيرون هنا."
وتنهد جويل، وقال:
"حسنا، إنه في غرفته، المهم أننا وحدنا، هل يرضيك ذلك؟"
وبقيت راشيل حيث كانت، وقالت:
"اعتقد أنه لا طائل وراء هذا الكلام يا جويل! طلبني أبوك بالهاتف وأخبرني أنه كان يحادثك."
وحدق فيها بشيء من العبوس، وقال:
"راشيل! أستحلفك أن تأتي وتجلسي، لن أحاول أن أغويك، أو أرتكب شيئا من الأشياء التي قد يوحي بها اليك تفكيرك، أريد أن أتحدث اليك."
وأسرعت أنفاسها، وقالت:
"عن أي شيء؟"
"تعالي واجلسي أولا."
وهبطت راشيل الدرج وجلست على طرف الاريكة، ولم تكن قد خلعت معطفها، وعندما قدم لها كأسا به سائل عديم اللون، أخرجت يدها من جيبها، لتتناول الكأس، وسألت:
"ما هذا؟"
"عصير!"
قالت وهي تتناول الكأس:
"أشكرك."
وعاد جويل ليجلس الى جوارها على الأريكة وقد

اقترب منها بدرجة كانت تخشاها، وقال:
"والآن، ماذا قال لك أبي؟"
هزت راشيل كتفيها في شيء من الارتباك، وقالت:
"فقط... أنك تحادثت معه..."
كانت ملامح جويل تعكس الشعور بالمرارة وقال:
"فقط ذلك، ولاشيء آخر، هل طلبك بالهاتف ليقول لك انه كان يحادثني."
وامتقعت بشرتها، وقالت:
"لا! كان لديه كلام آخر."
"مثل ماذا؟"
"لا يحق لي أن أخبرك به."
وبدت في صوته نغمة من الاحتقار، وهو يقول:
"هل أخبرك أنني تحدثت مع الجراح الذي سوف يجري العملية؟"
وهزت راشيل رأسها، وقالت:
"لا! ولكن، لماذا تحدثت الى الدكتور لوريمر؟"
"كنت اريد أن أعرف الحقائق. وصار يمعن النظر الى السائل في كأسه، وقال:
"هل تعرفين، أنها لن تنجح؟"
وأحست راشيل بتقلص في عضلات معدتها وقالت:
"ما هي التي لن تنجح؟"
"عملية زرع الكلية، أنا لا أحبها."
"ما هي تلك التي لا تحبها؟"
وصار وجه راشيل أكثر شحوبا الآن. وتنهد وقال:
"لا تنشغلي هكذا، لو أن بامكان أي شخص أن يجري هذه العملية فسوف يكون لوريمر، ولكن المسألة ليست هكذا، المهم النتائج التي تتبع ذلك."
حدقت راشيل فيه وقالت:
"ماذا تعني؟"
وهز جويل رأسه، وقال:
"سارة ما زالت طفلة."
"ولكن ذلك لن يغير من الموضوع شيئا."
"دعيني أتم... سارة ما زالت طفلة، ونظرا لأنها تعاني من هذه الحالة لفترة طويلة وتسببت في إعاقة نموها

الجسمي قليلا ولحسن الحظ فإن الآثار ما زالت بسيطة، ولكن اذا حدث زرع كلية شخص بالغ، فسوف تحتاج الى نوع من العقاقير المثبطة لطرد الجسم لأي عضو غريب كي تبقى على قيد الحياة، وأنت تعرفين ما تصنعه هذه الأدوية المثبطة، إنها تعوق النمو."

وأصابت راشيل قشعريرة، وقالت:

"أنا لا أصدقك، قال الدكتور لوريمر أن هناك فرصة كاملة لنجاح العملية."

"وسوف تنجح العملية من الناحية الفنية، ولكن اطلبي لوريمر على الهاتف إذا كنت لا تصدقين ما أقول، واطلبي منه أن يشرح الموقف، أعتقد أن اهتمامك الأول موجها لأن تظل سارة على قيد الحياة بعد العملية، ولا أعتقد أنك فكرت فيما بعد ذلك."

"إنك تنسى أن سارة لا يمكن أن تعيش على الكلية الصناعية طوال حياتها، إنني أريد لها الفرصة لكي تعيش حياة عادية."

"وأنا مثلك."

"إذن لماذا تحاول أن تخيفني وتقنعني بإلغاء فكرة زرع الكلية؟"

"إنني لا أحاول أن أخيفك، يا راشيل! كل ما أقترحه هو ألا تتعجلي ذلك. لقد تعودت سارة على جهاز الكلية الصناعية... وربما يكون من الأفضل أن تنتظري وتفكري... راشيل! إنني أريد صالح الطفلة أيضا وأنت تفهمين ذلك."

"حقا؟ حقا تريد ذلك؟"

ووضعت راشيل الكأس التي كانت تمسك بها على منضدة مجاورة، ونهضت ثم قالت:

"لماذا؟ لماذا؟ لتحرمني منها؟"

"عم تتحدثين؟"

ونهض جويل، ولكن راشيل أدارت ظهرها، وهي تقول:

"لا تحاول أن تنكر. أخبرني أبوك بما تسره."

"وهو؟"

وكان صوت جويل باردا للغاية. وانفرجت شفتا راشيل في شيء من المرارة:

"إنك تريد أن تتبنى سارة. وهذا ما هددت به في البداية،

يا لك من شخص متغطرس."

وشرب جويل ما بقي في كأسه وسقطت الكأس الفارغة على السجادة، وقال:

"إذا هذا ما قاله لك؟"

"هل تنكره؟"

وهز جويل كتفيه:

"وهل يغير شيئا من الواقع... اذا ما أنكرت؟"

"ماذا تعني؟"

وهز جويل رأسه، وقال:

"لا أنكر أنني أريد أن أتبنى سارة.."

وقالت راشيل في شرود:

"هذا خبال."

"لماذا؟"

"لأنك لا تشعر بأي حب تجاه الأطفال."

"على العكس، إنني أحب سارة كثيرا."

"ولكنك كنت دائما تقول.."

"إنني أعرف ما كنت أقوله دائما.. ذلك انتهى... لقد كنت أبله يا راشيل."

وكانت تشعر بالصداع، وصاحت:

"لن أسمح بذلك."

وبدت على وجهه علامات المرارة:

"لن تسمحي لي! كيف تمنعينني؟!"

"بالزواج من أبيك."

وسألها جويل باحتقار:

"هل هذا هو ما قاله؟"

"ولنفرض أنه قال ذلك.."

وهز رأسه، وقال:

"أوه، يا راشيل... من إذن هو الأبله الآن؟"

وردت في غضب وصدرها يرتفع ويهبط:

"لا تجرؤ على أن تسميني بلهاء!"

"إنك تحبينني... ليتك فقط تعترفين بذلك!"

"أنت؟.. (أخرجت ضحكة ساخرة)... إنني أكرهك!"

وتصلبت أصابع جويل، وقال:

"انتبهي، يا راشيل... لا تغريني لأفعل بك ما كنت أريد

أن أفعله منذ ست سنوات."

وخارت قواها، وصارت تتوسل اليه، وهي في حالة من الانهاك:

"دعني أذهب، يا جويل... أرجوك... لم يعد بوسعي أن احتمل أكثر من ذلك."

كانت يدا جويل ترتعشان، وأنفاسه تختلط بأنفاسها.

"إنني أحبك... دعيني أحبك يا راشيل، لا تتركيني!"

وانتزعت نفسها، وواجهته وهي ترتجف بطريقة أفقدتها السيطرة على نفسها.

"أوه... نعم... أنت تريد أن تفعل ذلك. تريد أن تأخذ ما تريد لكي تحدث جيمس بفعلتك!"

وأثارها بقوله:

"راشيل، إنك تتحدثين لغوا. بحق الله دعيني أشرح.."

"لا أريد سماع أي شرح منك... يا جويل!"

"راشيل... تعالي هنا!"

وحاول أن يمسك بها، ولكنها راوغته، وأسرعت تصعد الدرج، وخرجت من الباب قبل أن يستطيع أن يوقفها، وسمعته يجري خلفها، وبدلا من أن تنتظر المصعد بدأت تجري هابطة الدرج، تدور معه دورة بدورة. وتهبط معه طابقا وراء طابق، كان رأسها يدور، وساقاها تنضحان بالألم، هل كان يجد في أثرها؟ هل أخذ المصعد؟ أيكون قد سبقها الى الطابق الأرضي وبدا الدرج وكأنه لا نهاية له، ترى كم طابقا لا يزال أمامها؟ ولم تكن تقدر أن بإمكانها أن تواصل الخطو، بدا الدرج وكأنه شيء غريب للغاية. لم تكن تتبين هل هي تتسلق درجات السلم أو تهبط عليها؟ كانت ترى هذه الدرجات صاعدة اليها. ومدت قدمها لتصعد الدرجة الأولى، ولكن لم يكن هناك شيء، وزلت قدمها، وهوت، وصارت تهوي... واصطدم ذراعاها وساقاها... آوه... يا للألم... وراحت في نوبة من الاغماء.

١٠ ــ كلية من في جسم سارة؟

•

وفتحت راشيل جفنيها على ضوء ساطع، ولم تكن تعلم أين هي؟ كان السقف فوقها بسيطا ومطليا بطلاء أبيض، بل كان اللون الأبيض ينتشر في كل مكان. وكان ذلك يؤذي عينيها.

ونظرت بعينين طارفتين، وأحست بخفقان فوق حاجبيها، وصداع وآلام عديدة تنتشر في كل جسمها ... كانت ترقد في سرير ضيق، وكان الفراش محكما حولها بطريقة لم تتح لها حرية الحركة.

ودب الذعر في نفسها ... وقبل أن يتحول ذلك الذعر الى صراخ ظهر وجه بينها وبين الحائط الأبيض اللامع الذي يمتد أمامها، كان صوتا نسائيا رقيقا يقول:

"كيف حالك الآن، سيدة غيلمور؟"

حاولت راشيل أن تركز على الوجه المبتسم، ولكن كان ذلك شيئا بالغ الصعوبة، ولم تستطع أن تتعرف على ذلك الوجه، بل انها لم تعرف ماذا على رأس تلك المرأة؟ طاقية ... طاقية ممرضة! نعم كانت طاقية ممرضة! وصاحت في صوت يعبر عن الألم:

"سارة! أين سارة؟"

"سارة بخير تام ... المهم أنت ... إننا قلقون عليك أنت!"

وأغلقت راشيل عينيها وغمرها للمرة الثانية نعاس عميق، وصارت تردد في شيء من اليأس:

"سارة ... سارة ..."

وفتحت عينيها للمرة الثانية، لم تكن الجدران تبدو كلها بيضاء، وقطبت وهي تحاول أن تفكر .. ماذا جاء بها الى ذلك المكان؟ لماذا هي في المستشفى؟ وسمعت صوتا يقول:

"السيدة غيلمور؟"

كان الصوت صوت رجل، وكان الوجه يدل على انه يميل الى كبر السن، وبلعت راشيل ريقها، وقالت:

"ماذا أفعل هنا؟!"

وأشار الرجل الذي يلبس المعطف الأبيض الى إحدى الممرضات من خلفه، لتقطر سائلا بين شفتي راشيل، كان السائل منعشا وكان مذاقه مقبولا ·"

"والآن، يا سيدة غيلمور ··· لا أريدك أن تتكلمي ··· كل ما أرجوه هو أن تستريحي ·"

"أين أنا الآن؟"

"أنت في المستشفى، يا عزيزتي ··· ألا تذكرين أنك سقطت على الدرج ··· الى الدور الأرضي ·"

وقطبت حاجبيها ونشقت نفسا مضطربا · وتذكرت جويل ··· مسكن جويل!، وأخذت تنطق بصوت باهت:

"سارة؟"

"سارة بخير ·"

"أريد أن أراها ·"

"لا داعي لأن تثيري أعصابك يا سيدة غيلمور ·"

قالها الرجل بحزم، وهو ينحي عنها الفراش، ليمسك بمعصمها:

"غير مسموح لأحد بزيارتك الآن · سوف ترين سارة في الوقت المناسب ·"

"سارة، من يرعاها؟"

"لقد فهمت أن أباها يتحمل المسؤولية ·"

ولكن راشيل لم تكن تسمع · وحاولت أن تتحرك، ولكنها لم تستطع وبكت · كان الألم في رأسها يزداد حدة، أوه يا الله لماذا لا تستطيع الحركة؟ هل أصابها الشلل؟ كان عليها أن تفكر ·· وتفكر، ولكن التفكير كان مؤلما للغاية ··· كان وجه الرجل غامضا ··· وكانت لا ترى من بعد الا الظلام الحالك وأصبح عليها أن تسأل ··· وومضت عيناها ··· تذكرت أن هناك شخصا يجلس الى جانب الفراش · أيمكن أن يحدث هذا ··· أين اذن ذهب الرجل ذو المعطف الأبيض؟ والممرضة؟ والرجل الذي يجلس الى جانب الفراش لم يكن يلبس معطفا أبيض، بل قميصا وسترة جلدية · وكان يجلس في وضع يدل على الاعياء الكامل · وأحست بأصابعها بين أصابعه ··· وحاولت من باب التجربة أن تحرك أصابعها ··· وغمرها شعور بالشكر حين نجحت ·

وانتبه الرجل على الحركة، ورفع رأسه يستطلع حالها،

كان الرجل هو جويل، وعرفت ذلك في الحال رغم أنه كان يبدو مكتئبا أضناه التعب وأهمل لحيته فبدأت تطول ونظرت بعينين طارفتين من جديد · كان الضوء الوحيد في الغرفة يأتي من مصباح الى جانب الفراش · وكان الظلام قد ساد ثانية، لا بد أنها نامت طوال النهار ·

قال وهو يتنفس باضطراب:

"راشيل، راشيل، هل أنت صاحية؟"

"أ ··· أعتقد ذلك ·"

"جويل ·· أين سارة؟"

وأخذ يدها بين يديه، وقال يوجه اليها بعض النصيحة:

"سارة تجد الرعاية الكاملة، كل ما ينبغي أن تفكري فيه هو أن تتحسني أنت ·"

"متى أراها؟"

"في القريب العاجل ···"

وتململت وأحست بشيء ملفوف حول رأسها، وقطبت حاجبيها، ورفعت ذراعها الطليق، وصارت تتحسس رأسها · كان ملفوفا في الضمادات · ولم تجد أثرا للشعر الذي كان يتهدل طليقا حول كتفيها وأحست بما تعرضت له فروة رأسها من إصابة، واتجهت في ذعر صوب جويل:

"لماذا؟ لماذا ألبس هذه الضمادات؟"

وسألها وهو يهز رأسه بينما عيناه تعبران عن التأثر البالغ:

"ألا تذكرين؟"

"أعرف ··· أنني سقطت الى الدور الأرضي ··· وأتذكر أنني أصبت في ذراعي وساقي ·"

ورفع يدها الى شفتيه وقال:

"كانت غلطتي ·· كنت تهربين مني ··· أوه، يا راشيل، كدت أجن طوال هذه الأيام الماضية ··· وحاولت راشيل أن تستوضح:

"الأيام الماضية! ماذا تقصد؟"

"راشيل ··· مضى عليك، وأنت راقدة هنا حوالي أسبوع ·"

"أسبوع! ولكن ··· ولكن ···"

ومد جويل يده وحاول أن يربت على شفتيها بأصبعه:

"لا تحاولي أن تتكلمي ··· لا بد أن أخبرهم بأنك صحوت ··· وحاول أن ينهض ولكن راشيل أمسكت بيده بإحكام:

"ليس بعد ... يا جويل! أرجوك أن توضح لي ... كيف أمضيت هنا هذه المدة الطويلة؟ إنني لا أتذكر!"
وتنهد وهو يغوص في مقعده وقال:
"كنت مصابة بالاغماء لعدة أيام، يا راشيل ... ثم ... أجريت لك عملية جراحية."
"رأسي! أجريت لي عملية جراحية في رأسي؟ هل حلقوا شعري؟"
"كان الحزن قد بدأ يجثم عليها، ولكنه أخذ يهدىء من روعها وقال لها:
"اسمحي لي بأن أنادي الطبيب، يا راشيل."
وقالت وصوتها يجهش بالكلمات:
"لا! حلقوا شعر رأسي؟ أجبني! حلقوه؟"
"كان عليهم أن يفعلوا ذلك، يا راشيل! كان هناك نزيف بالداخل، ولكنك سوف تتحسنين، وسوف ينمو شعرك من جديد، ويعود جميلا كما كان."
وانهمرت الدموع على وجنتيها، وذهب يطلب العون والمساعدة، وعندما ظهر الطبيب والممرضة الراهبة لم يكن جويل في رفقتهما.
وخلال الأربع والعشرين ساعة التالية، اقتنعت راشيل بأنها نجت من الموت بأعجوبة، وأن الرأس الحليق كان ثمنا تافها دفعته اذا ما قورن بالشلل الذي كان يمكن أن يسببه نزيف المخ. كانت تشعر بهزال كبير. وكانت فاترة الهمة، وسألت عن سارة ومتى يمكن أن تراها وأين تقيم؟ ولكن الاجابات التي كانت تتلقاها كانت اجابات غامضة. ومضى يومان آخران حدث فيهما تغير كبير ... كانت قد بدأت تأكل القليل من الطعام ... واستطاعت أن تتكلم بدون أن يعود عليها ذلك بالاجهاد ... وبدأت تستند الى الوسائد لتمتع ناظريها بحدائق المستشفى من خلال النوافذ العالية ... وسألت الطبيب الذي جاء ليفحصها:
"متى أستطيع أن أرى سارة؟"
ونظر اليها بشيء من التفكير قبل أن يجيب:
"لا تستطيعين أن تريها الآن بعد، يا سيدة غيلمور ... لأن سارة في المستشفى أيضا ... هي الأخرى ..."
"تقصد أنها تحصل على جلسة العلاج بجهاز الكلية الصناعية؟"

"لا! ليست في علاج، ولكن أجريت لها العملية التي أردت أن تجرى لها."
"ماذا تقول؟"
"أجريت لسارة عملية نقل الكلية منذ أسبوع، وأعتقد أن العملية نجحت تماما."
"منذ أسبوع؟"
"والآن أرجو ألا تجزعي بخصوصها، لا شيء يدعو الى القلق، انها في أيد متخصصة أمينة."
"ولكن ... كيف أمكن أن تجرى لها العملية دون وجودي؟ من أعطاهم الاذن بذلك؟"
"إنني أعرف أنه في ظروف خاصة، عندما يكون هناك اذن مسبق، بأنه يسمح بإجراء العملية، ثم أليس لأبيها هذا الحق؟"
وأدارت راشيل وجهها الى الوسادة، وقالت في صوت مختنق:
"إذن، عاد السيد كنغدوم من ألمانيا ..."
"كنغدوم ... لم أكن أعرف أن السيد كنغدوم ذهب الى ألمانيا."
واستدارت راشيل وتنهدت ... كان بالطبع يظن أنها تقصد جويل كنغدوم، وقالت بعبوس:
"لا يهم .. (وبدأت تفكر فيما قد يعنيه ذلك بالنسبة الى سارة) .. وماذا تقول؟ إيه .. العملية كانت ناجحة؟ لا أكاد أصدق ذلك."
وابتسم الطبيب، وقال:
"هذا شيء طبيعي ... إنني أفهم شعورك ... ولكن أحيانا يكون من الأفضل أن يتم التصرف بهذه الطريقة ... حسب اللحظة، هكذا، كانت ابنتك سعيدة الحظ للغاية، وأمامها الفرصة الآن لتستمتع بحياة عادية تماما."
"نعم ..."
وزمت راشيل شفتيها:
"وأخيرا تمت العملية!"
واستطاعت أن تخمن من الذي كان وراء ذلك؟ جيمس كنغدوم. أجريت لها بالفعل عملية نقل الكلية، وكانت في طريقها للشفاء.. بل لقد نجحت العملية، وأكد الطبيب

ذلك، ومن المؤكد أن جيمس الآن سوف يتخذ الاجراءات الكفيلة بألا يجد جويل أية فرصة للمطالبة بابنته. وخلال الأيام التالية، كانت تتوقع أن يتصل بها جويل بطريقة ما فمن المؤكد أنه كان يعرف مشاعرها نحو سارة، وربما يشعر بالشفقة تجاهها ويأتي ليخبرها بحقيقة حال سارة وكيف كان رد فعلها لهذا الفراق الذي طال على غيبتها عن أمها، ولكنه لم يظهر، ودهشت عندما وجدت أن أول من حضر لزيارتها كان اريكا غراي... كانت تلبس بذلة ضيقة من "الكريب" الأسود وكانت تحمل معها باقة من الورد والقرنفل. وكانت اريكا تحس بحرارة عنكبوت كبير جائع وقالت:

"أهلا... يا راشيل.."

ووضعت باقة الأزهار على الفراش، وقالت:

"كيف حالك؟"

وأومأت راشيل الى الممرضة التي صحبت الزائرة، ايماءة طفيفة، بالانصراف وهي تقول:

"إنني أتماثل للشفاء، شكرا، لماذا حضرت، يا اريكا؟"

ورفعت اريكا حاجبيها القائمين، وقالت:

"هل بإمكاني أن أجلس؟"

"اذا كان ذلك أمرا ضروريا. إذن أجلسي."

وجلست اريكا باسترخاء، وقالت:

"ينبغي أن أقول لك، إن جويل هو الذي طلب الي أن أحضر."

وتوترت أعصاب راشيل وقالت:

"أوه، صحيح؟"

وردت اريكا وهي تمسح على التنورة بيدها التي تلبس القفاز:

"نعم... لقد شغل بالعمل، كما تعرفين. ولكنه أراد أن يخبرك بأننا لم ننسك أو ننس سارة."

ولم تستطع راشيل أن تكبح جماح استجابة خرجت بطريقة آلية، وقالت:

"سارة؟"

"نعم، سارة. أنت تعرفين بالطبع أن العملية أجريت لها."

"بالطبع."

"رتب لها جويل كل شيء."

"جويل؟"

"لماذا؟ نعم! ألا تعرفين؟"

"لا..."

وصارت راشيل تندف بعصبية في غطاء السرير:

"هل رأيتها؟!؟"

"بالطبع! إن جويل يراها كل يوم، وأنا أذهب معه كلما استطعت ذلك."

ووضعت يدها على فمها، كأنها ندمت على ما قالت، وأكملت:

"جويل يحرص على أن يرى ابنته، ولكن بالنسبة اليك فالأمر يختلف.."

"لماذا جئت يا آنسة غراي؟ ما الذي تحاولين أن تقوليه لي؟"

"قلت لك إن جويل طلب الي المجيء."

"لماذا؟ إنه يعرف أنني لا أهتم إذا ما حضر... أو لم يحضر!"

كانت عينا اريكا تحاولان أن تسبرا مشاعر راشيل، وقالت:

"آه، ولكن هل تعنين ذلك حقا؟ أنا وأنت نفهم ذلك بطريقة أصدق يا سيدة غيلمور... أليس كذلك؟"

"لا أفهم ما تعنين..."

"أعتقد أنك تفهمين... يمكنك أن تحاولي أن تقنعي نفسك بأنك لا تكترثين، ولكنك لا تستطيعين الاقتناع بذلك... إنك تعرفين أنني وأنت نعاني من المرض نفسه. وأنا أعرف الأعراض..."

ونشقت راشيل نفسا عميقا وقالت:

"إنك مخطئة، يا آنسة غراي. إنني لا أشعر تجاه جويل الا بالاحتقار أما أنت... فهنيئا لك به."

وجعلت اريكا أطراف أصابعها تتلامس مع بعضها البعض، وقالت:

"وسارة؟"

"وماذا بالنسبة الى سارة؟"

"إنك تريدين أن تحتفظي بها؟"

"بالطبع!"

"إذا، تزوجي جيمس كنغدوم يا سيدة غيلمور... قبل أن تفقديها تماما."

صارت راشيل تحدق فيها بدهشة، وقالت:

"وماذا يهمك في ذلك؟"

"ألا تفهمين؟ أنا لا أهتم بالأطفال، يا سيدة غيلمور... ولذلك فإن مجرد التفكير في أنني أرعى طفلة في صحتها أو في مرضها شيء لا يروق لي... وإذا كان جويل مصمما على أن يتبنى سارة.."

ومالت برأسها جانبا، وواصلت:

"لعلك تفهمين؟!"

"ولكنه لن يتبنى سارة! ولن يستطيع ذلك!"

"أنا غير متأكدة من ذلك، ومن الواضح أن سارة تهتم بجويل، وهو يهتم بها كذلك."

وطأطأت راشيل رأسها، وقالت:

"إن تبني جويل لسارة مسألة غير مطروحة... سوف أتزوج جيمس حالما يشفى ويتمكن من الحركة ثانية."

وظهر على اريكا بعض الاضطراب، وقالت:

"جيمس! يشفى ويستطيع الحركة ثانية؟ عن أي شيء تتحدثين؟"

وأسندت راشيل نفسها الى الخلف على الوسادة، وتمنت أن لو انصرفت أريكا وتركتها وحيدة، كان ما يحدث فوق طاقتها، ولا بد أن بشرتها شحبت بعض الشيء، فقد انتصبت اريكا في جلستها، وقالت:

"راشيل! راشيل! هل أنت بخير؟"

وعندما أفاقت راشيل تنهدت الراهبة ثوماس بقلق، وقالت:

"قلت للمرضة هاربر بألا تسمح للآنسة غراي بأن تطول زيارتها لأكثر من خمس دقائق... كيف تشعرين الآن؟"

ووضعت راشيل يدها على جبهتها، وقالت:

"أشعر بدوار بسيط..."

"لو كنت أعلم أن الآنسة غراي ستسبب لك هذا الضيق، لما سمحت لها على الاطلاق بزيارتك.."

وحاولت راشيل بشيء من الجهد أن تنظر حولها، وهي تقول:

"الآنسة غراي... أين هي؟"

"انصرفت، ولكنها تركت لك هذه.."

ووضعت أمامها باقة الورد والقرنفل، وقالت:

"سأطلب الى الممرضة أن تضعها في الماء."

وردت راشيل على الفور:

"لا، لا، لا تفعلي أيتها الراهبة! خذيها بعيدا، أعطيها لشخص آخر أو احتفظي بها اذا أردت... أنا لا أريدها."

وقطبت الراهبة ثوماس، وقالت في شيء من الشك:

"أعتقد أن الآنسة غراي قالت إنها صديقة لك؟"

وتململت راشيل عندما أحست بأن حالة الدوار قد بدأت تزول عنها.. وقالت:

"علاقتي بها مجرد معرفة.. لا أكثر من ذلك.. لا أريد أن أراها ثانية."

وفي الأيام القليلة التالية، تحسنت حالة راشيل الجسمية بمقدار ما ساءت بها حالتها النفسية. كانت يوميا تتوقع أن يزورها جيمس، وكانت تشعر بالحنين لرؤية سارة، ولكن مستشفى ليدي مارغريت حيث أجريت له فيه عملية نزع الكلية كان يبعد عن مستشفى سانت ماثيوز بمسافة ما. وكان عليها أن تسلم بأنهما لن يتقابلا الا بعد شفاء سارة. وعندما أحست بقدرتها على الامساك بالقلم والورق كتبت الى ابنتها رسالة. وجاءها الرد على هيئة رسالة قصيرة كتبت بخط إحدى الممرضات على أغلب الظن:

"عزيزتي ماما... أسفت عندما علمت أنك أيضا مريضة، وإنني أفتقدك كثيرا، ولكن جويل زارني، وأخبرني بأنك تتحسنين، وجاء السيد كنغدوم ليزورني كذلك، ولكنني..."

أما بقية الجملة فلم يكن واضحا، ومع ذلك استطاعت راشيل أن تقرأ الكلمات: "لا أحبه."

وتنهدت راشيل، وواصلت قراءة الرسالة:

"لا أعتقد أنه في رقة جويل."

وأيقنت راشيل أن سارة لن تتقبله وواصلت

"ويقول الدكتور لوريمر إنني سوف أستطيع الخروج من المستشفى في القريب العاجل، وعند ذلك سأحضر لأراك، اقبلي المزيد من حب، سارة."

وأحست راشيل بالدموع الساخنة خلف عينيها، وهي تعيد قراءة الرسالة. وخطر لها: هل يمكن أن يكون جيمس أخبر سارة بشيء عن زواجهما القريب؟ ألهذا قالت سارة إنها لا تحبه؟ وأعادت راشيل الرسالة الى المغلف.. لو أن جيمس زار سارة فلا بد أنه آت قريبا.

وفي اليوم التالي، في فترة ما بعد الظهر، دخلت الراهبة ثوماس الى حجرة راشيل، وقد بدا عليها شيء من الاستغراق في التفكير، وقالت:

"هناك زائر آخر، سيدة غيلمور ٠٠ هل تريدين مقابلته؟"

"أوه! نعم! إنه ٠٠٠"

ووضعت يدها على رأسها المربوط بالضمادات، وقالت:

"هل أبدو في منظر غير مقبول؟"

ولكن الراهبة ثوماس ابتسمت ابتسامة فيها شيء من اللوم.

"أفهم أنك تهتمين برأي السيد كينغدوم فيك، ولا يمكن أن ألومك على ذلك فهو رجل جذاب، ولقد شغل به عدد كبير من الممرضات آخر مرة كان فيها هنا!"

وبينما كانت الراهبة ثوماس تتجه الى الباب نادتها راشيل:

"انتظري! انتظري دقيقة ٠٠٠ السيد كينغدوم هذا، هل هو شاب صغير؟"

وقطبت الراهبة ثوماس، وقالت:

"ألا تعرفين؟"

"نعم! بالطبع، ولكن هناك اثنان بالاسم نفسه ٠٠٠ هل أعطاك اسمه، اسمه الأول؟"

"لم يكن بحاجة الى ذلك ٠٠٠ فأنا أعرفه بالفعل ٠٠٠ إن جول كينغدوم ليس مجهولا في الأوساط التي تقدر العمل الفني."

"أوه! أفهم الآن. لا أريد أن أراه ٠٠٠ أرجوك أن تطلبي منه الانصراف."

وقالت الراهبة ثوماس في دهشة:

"أطلب إليه أن ينصرف، يا سيدة غيلمور؟ لكنه هو المسؤول عن إدخالك الى المستشفى وعن توفير أقصى درجة من العناية لحالتك ٠٠٠ إن الدكتور فريزر ٠٠ (وذكرت اسم الجراح الذي قام بإجراء العملية) هو أشهر أخصائي في الجراحة الداخلية للتجويف العظمي للرأس، وكان يقيم في المستشفى ليل نهار حتى شفيت من العملية. ألا تشعرين أنك مدينة له وهو الذي رتب كل شيء؟"

وأصرت راشيل ألا تنظر إليها وقالت:

"آسفة ٠٠٠ ولكنني لا أود أن أراه."

"ولكن، يا سيدة غيلمور ٠٠"

ورفعت راشيل بصرها الى أعلى، وقد ظهرت حمرة على وجنتيها، ولمعت عيناها، وقالت:

"هل أنا مضطرة لمقابلته؟ هل هذا شيء ملزم هنا؟"

وتنهدت الراهبة ثوماس وقالت:

"إنك تعرفين أنه ليس كذلك."

وهزت رأسها، وقالت:

"وهو كذلك إذا لم تغيري رأيك."

"لن أغير رأيي. أرجو أن تخبريه أنني عارفة بالجميل لكل ما صنعه. ولكن لا فائدة. ليس بيننا ما يقوله أحدنا للآخر."

كانت تظن أن جويل لن يقبل بذلك، وانه ربما يغضب، ويندفع الى داخل الحجرة ليستطلع ما يجري، ولكنه لم يفعل، ومن جهة أخرى أحست بحاجة الى البكاء. ووبخت نفسها. كان جويل قد أوضح موقفه تماما، كان مصمما على أن يأخذ سارة منها، وكان جيمس فقط هو الذي يقدم البديل. وحاول جويل في الأسبوع التالي ثلاث مرات أن يرى راشيل دون أن ينجح في ذلك. وكانت في كل مرة ترفض زيارته تحس كأنها ترفض جزءا منها، وكانت لا تفكر في جويل الا بوصفه الرجل الذي يريد أن يأخذ منها سارة ٠٠٠ وكانت تحدث نفسها أن أي ارتباط وثيق بالرجل الذي أحبته بجنون، والد طفلتها ٠٠ كان من الممكن أن يؤدي الى نتائج مدمرة. ومع ذلك فانها لم تكف عن حبه. وخطر لها أنه كلما أسرع جيمس بالزواج منها وأبعدها عن فلك جويل كلما كان ذلك خيرا لها.

وأحست بالارتياح الغامر عندما جاءت الراهبة ثوماس بعد ذلك بأيام لتعلن نبأ قدوم السيد جيمس كينغدوم لزيارتها. كانت قد غادرت الفراش لتجلس على كرسي الى جوار النافذة تقضي بعض الوقت في القراءة ورفعت بصرها في فضول وهي تضع يدا مضطربة الى ضماداتها، وقالت:

"سوف أراه ٠٠٠ دعيه يدخل."

كان جيمس كما تعودت أن تراه، لم يطرأ عليه أي تغيير. كانت تتوقع أن ترى آثار العملية الجراحية بادية عليه، ولكن لم يكن هناك أي أثر. ودلف الى حجرتها ببطء، وهو يبدي اعجابه بقامتها الرشيقة وردائها الأزرق الناعم. وكان يركز عينيه على وجهها الشاحب، وقال:

"حسنا، يا راشيل ... ما الذي فعلته بنفسك؟"

ولم يحاول أن يقبلها، وكانت مسرورة بذلك ... وأشارت الى الكرسي المقابل لها وطلبت اليه أن يجلس ... وجلس ... وصارت تتأمل الورود التي أحضرها، وعبرت عن سرورها بها فقالت:

"إنها جميلة!"

كان جيمس ينظر اليها في شيء من الغرابة، وقال:

"كيف حالك يا راشيل؟"

"أوه! إنني بخير ... أحسن بكثير ... وقال الدكتور فريزر إنه سيكون بوسعي مغادرة المستشفى خلال أيام قليلة."

"صحيح؟ ومن الذي سوف يهتم بشؤونك؟"

واحمر وجهها، وقالت:

"سأحاول.."

"هل رأيت سارة؟"

"لا، لكنني أتوقع أن أراها في القريب العاجل."

سكت لحظة وقالت:

"جيمس! لم أقدم لك الشكر بعد."

"تشكرينني؟"

"بالطبع! أقصد لما بذلته في إنجاز العملية الجراحية، وآسفة لأن دخولي المستشفى أدى إلى تأجيل شيء آخر، أليس كذلك؟"

وظل جيمس ينظر اليها بثبات لعدة دقائق، وقال:

"أنت لم تري جويل بعد؟"

"لا! لم أره منذ تلك الليلة التي أجريت لي فيها العملية، وعلمت أنه هو الذي أحضرني هنا."

"نعم! لقد فعل ذلك!"

"ماذا كنت تفعلين وأنت تهبطين على عجل درج المبنى الذي يقيم فيه جويل؟"

"ألم يخبرك هو بذلك؟ أعتقد أنه لم يفعل، أو أنك لم تسأل؟ وقع بيننا شجار حول رغبة جويل في أن يتبنى سارة."

"ولا يزال ينوي ذلك.."

"أعرف، ولكنك لن تسمح الآن بأن يحدث شيء من هذا، أليس كذلك، يا جيمس؟ لقد وعدت بذلك!"

وتوقفت عن الكلام، وبدا جيمس كأنه يحس بشيء

من تأنيب الضمير، وقال:

"هل تقصدين أنك تريدين أن نتزوج بأسرع ما يمكن؟"

وأومأت راشيل بالموافقة، وقالت:

"كان هذا ما اتفقنا عليه!"

"فعلا! كان هذا ما اتفقنا عليه!"

"إنني أريد أن يتم كل شيء لنضع حدا لهذا الموضوع ... أريد أن يكون لسارة بيت صالح وأبوان صالحان ... وبإمكانك أن توفر لها هذا يا جيمس ..."

ونهض جيمس على قدميه، وأخذ يذرع الغرفة وهو مستغرق في التفكير:

"أعتقد أنه من الممكن أن نتزوج هنا ... في المستشفى ..."

"ومن الممكن أن تعد الترتيبات اللازمة ..."

عندئذ أخذت راشيل تتحسس شفتيها بأصابعها في شيء من التفكير، وهي تقول:

"في المستشفى؟ ولكن مظهري سيء للغاية."

وعلق جيمس على ذلك:

"أنا لا أرى أي غضاضة في ذلك."

وحاولت راشيل أن تفكر بطريقة منطقية، وارتأت أنها إن تزوجت بجيمس فلن تكون هناك فرصة للعودة، وكان الخاطر مزعجا، ولكن لو أرادت أن تحتفظ بسارة ...

"حسنا ... اذا كان بإمكانك أن تفعل ذلك .."

وحاول جيمس تأكيد عزمه على التنفيذ في قليل من غطرسته المألوفة:

"أوه، سوف أفعل ..."

وسألته وهي تحاول أن تركز على الطفلة:

"هل رأيت سارة؟"

وأخذ جيمس يتفحصها عن كثب لعدة لحظات، كأنه يريد أن يسبر دوافعها للسؤال، وأجاب:

"إنها بخير تام .. وكان زرع الكلية نجاحا كبيرا ..."

كانت راشيل تشعر بالانهاك، ومع ذلك قالت:

"إنني مبتهجة للغاية! هل هي حقا بخير؟ متى تحضر لتراني؟"

ونظر اليها جيمس مرة أخرى بإحدى نظراته الصارمة،

وهو يقول:
"في القريب العاجل ... سوف أعد الترتيبات اللازمة لكي تقيم السيدة تالبوت في الشقة وتعنى بها."
"أوه! هل تفعل ذلك؟ إنه من حسن التدبير ... وإذن فلا بأس أن أتحمل الانتظار. رغم أنه قد مضى وقت طويل لم أرها فيه...."
وقال جيمس:
"نعم!"
وعاد الى كرسيه وجلس ثانية، وصار يتفرس فيها وقال:
"راشيل! أريد أن تعديني بشيء."
وردت وهي تنظر اليه بشيء من الشك:
"وما هو؟"
"أريد أن تعديني أنه اذا ما حاول جويل الاتصال بك، فسوف تثابرين على رفضك لرؤيته."
"حسنا، اذا كان هذا هو قرارك."
"إنه كذلك! أنا لا أريد أن يسبب لي المتاعب، وأعتقد أنه فعل ما فيه الكفاية، سواء في هذه المرة، أو في المرات الأخرى ..."
كان اليومان التاليان منهكين للأعصاب بدرجة بالغة ... كانت في بعض الأوقات تخشى أن يظهر جويل ليواجهها بنواياه، وفي أوقات أخرى تجد أنها تعاني من الضيق والحيرة، فهي تخشى أن تتأذى سارة نتيجة لاجبارها بالقوة على مفارقة الرجل الذي بدأت تعنى به - ربما كانت هي، راشيل، الانسانة - الأنانية، التي تنكر على ابنتها حقها في الاختيار، بل ربما كانت تخشى أن تختار سارة البقاء مع أبيها.
وفي اليوم التالي في فترة ما بعد الظهيرة جاءها زائر آخر، كان الطبيب قد أزال الضمادات عن رأس راشيل في اليوم السابق، ولم يترك سوى شريط لاصق سميك فوق الجرح. وكان شعرها النابت حديثا بزغبه الفضي قد بدأ يغطي فروة رأسها، ووفرت لها المستشفى شعرا مستعارا يتناسب ولون شعرها، ولكنها كانت حساسة نحو ذاتها بطريقة شديدة، ولم تكن قد استجمعت بعد الشجاعة الكافية لتلبسه فوق رأسها... وكانت تحس بأن الضمادات الملفوفة على رأسها أكثر

قبولا من ذلك الشعر المستعار.
كانت الراهبة توماس تبدو مبتهجة عندما أخبرت راشيل بمقدم الزائر الجديد، وأكدت لها في شيء من التسامح، وهي تقدم لها الشعر المستعار، والمرآة لترى صورتها، وهي تلبسها:
"إنه شخص أثق أنك تتمنين رؤيته."
وقامت راشيل بتثبيت الشعر المستعار، ونظرت الى نفسها في المرآة، وسألت وهي تعيد المرآة الى الراهبة توماس من جديد:
"ومن يكون؟ أرجو ألا يكون جويل كينغدوم!"
وهزت الراهبة توماس رأسها، وقالت:
"لا، انتظري دقيقة! سوف أحضرها لك!"
وقبل أن تبدي راشيل أية معارضة بحجة أنها لم تعلن بعد عن موافقتها على رؤية الزائر، خرجت الراهبة توماس، وعادت بعد ثوان قليلة، ومعها جسم صغير يثب على الأرض في ثوب قطني خشن أحمر اللون، وقميص أبيض بسيط، لها شعر قاتم ناعم يتمايل حول وجهها الصغير المضطرب ... ولم تكن راشيل تصدق عينيها، وقالت:
"سارة!"
وأسرعت تحتضن ابنتها بين ذراعيها، وهي تردد والدموع في عينيها:
"أوه! لا تعرفين كم أحس بالسعادة، وأنا أراك الآن!"
وانسحبت الراهبة توماس بلباقة، وبقيتا لعدة دقائق ملتصقتين. وأخيرا جذبت راشيل سارة نحو أحد الكراسي، وجلست، ووضعت الطفلة على ركبتيها، وقالت:
"إنك على ما يرام! هل تحسين بأي ألم؟"
وأجابت سارة في شيء من اللامبالاة:
"إنني بخير تام، ولن أستخدم ذلك الجهاز بعد الآن."
وحركت راشيل رأسها في استسلام، وقالت:
"لا .. أفهم ذلك .. أوه .. سارة ... لقد افتقدتك كثيرا!"
وقالت سارة، وهي تربت بيدها على وجنة أمها:
"وأنا أيضا .. لقد كان كل شخص رقيقا معي للغاية ... وجاءني العديد من الهدايا واللعب. وأحضر لي جويل العديد من اللعب وكان يقول إن بعضها منك."

"حقا؟"

ترنح قلب راشيل، وحاولت أن تسيطر على صوتها المرتعش، وهي تضيف:

"وهل رأيت العم جيمس كذلك؟"

وجعدت سارة أنفها، وقالت:

"أوه! نعم، ولكنه أحضر لي فقط علبة موسيقية من ألمانيا."

"ولكن يا سارة نحن لا نحكم على الناس بما يحضرونه من الهدايا."

"أعرف. ولكن جويل يقول إنه يحبني ... ويقول إنه يريد أن أكون فتاته الصغيرة."

وتقلصت عضلات معدة راشيل بشكل سبب لها الألم، وقالت:

"وماذا قال العم جيمس؟"

"لا أتذكر ... أنا لا أحب ذلك الرجل."

وهزت راشيل جسد سارة بعض الشيء، وقالت:

"سارة! أرجو ألا تقولي شيئا مثل هذا ... وفضلا عن ذلك فإن العم جيمس لم يكن يستطيع أن يأتي ليزورك مثلما فعل جويل. فقد كان هو الآخر بالمستشفى. أرجو أن تتذكري ذلك!"

"لماذا؟"

"أنت تعرفين ... فقد أعطاك العم جيمس إحدى كليتيه لتغدو صحتك على ما يرام."

"لا! هو لم يعطني شيئا. الذي أعطاني هو ذلك الولد الصغير ... الذي مات!"

ووقعت راشيل في حيرة كاملة:

"ماذا تقصدين بالولد الصغير، الذي مات؟"

وهزت سارة رأسها وقالت:

"الولد الذي صدمته السيارة ... كانت حادثة مؤسفة للغاية ... ولكن الدكتور لوريمر قال: الله هو الذي يحسم هذه الامور! وليس الانسان!"

لم تكن راشيل تفهم شيئا مما تقول، وسألتها:

"عم تتحدثين يا سارة؟"

وزفرت سارة زفرة تعبر عن الحنق وقالت:

"يا ماما ... ألا تفهمين؟ لقد شرحت لك ... صدمت السيارة طفلا بالقرب من المستشفى في الليلة التي وقع لك

فيها الحادث. وقال جويل: الاطباء كانوا يبحثون عنك في كل مكان، ما عدا المستشفى!"

وقهقهت سارة عندئذ، وبدأت راشيل تدرك ما حدث، وقالت:

"تقصدين أنك حصلت على إحدى كليتي هذا الولد الصغير؟"

"هذا هو ما قلته بالضبط."

مدت سارة أصبعها الى أسفل ذقن راشيل تداعبها، وأكملت:

"ألم يخبرك جويل بذلك؟"

وحولت راشيل بصرها بعيدا عن سارة، وقالت:

"لم أر جويل!"

"لم تشاهديه؟ ولكنه حضر لزيارتك؟ كان يريد أن يخبرك عن عزمه في أن يجعلني فتاته الصغيرة."

وأزاحت راشيل سارة من عن ركبتها، ونهضت على قدميها في شيء من عدم الاتزان، اذ بدأت فجأة تدرك مغزى أشياء عديدة ... ما ذكرته اريكا من أن جويل هو الذي أعد الترتيبات الخاصة باستزراع الكلية، اضطراب اريكا عندما سمعت راشيل تذكر عرضا أن جيمس كان في المستشفى، وفوق ذلك شك جيمس عندما حضر ليزورها أول مرة ... ذلك الشك الذي زال عنه عندما أدرك أنها لا تعرف شيئا عن الحقيقة كاملة ... واضطربت دقات قلبها ... ألهذا اقترح عليها أن يتزوجا في الحال؟ في المستشفى؟ لا بد أن الأمر كان كذلك ... وأكد لها ذلك أيضا، حرصه على ألا ترى جويل؟

وأخذت تلهث بعمق، كان الذعر يعتمل في نفسها كأنه قوة دافعة ... لو أن سارة لم تحضر اليها ... ولو أنها لم تعرف الحقيقة. لتزوجت جيمس بدون مقابل ... ولكن، ألم يكن في ذلك شيء من القسوة على جيمس؟ لم يكن الذنب ذنبه عندما أتيح لسارة أن تحصل على كليتها من شخص آخر! كان على استعداد لأن ينجز ما تعهد به من ترتيبات! ولكن الترتيبات لم تكن لازمة الآن! أم أنها كانت لازمة!

وضغطت راحتيها على وجنتيها، ماذا كان تأثير ذلك كله عليها؟

كان جويل لا يزال ينتظر، وكانت رغبته في تبني سارة لا تزال ترفرف فوق رأسها بل كان ذلك واضحا في كل ما

قالته سارة منذ دخلت الغرفة، وكانت لا تزال أمامها الفرصة لتتزوج جيمس لو أرادت الاحتفاظ بالطفلة! ولكن هل كان بإمكانها أن تفعل ذلك؟ ليس لمجرد أنها لا تحب جيمس... لو أنها لم تكن تحب رجلا آخر، لكان الأمر سهلا. فهو مقبول في بعض جوانب شخصيته رغم قسوته، وربما عاشا في سعادة كاملة. ولكن كان عليها أن تفكر في سارة. إذ لم تعد صاحبة الحق المطلق في الاستئثار بعواطف الطفلة.

كانت سارة خلال ذلك، تشد بقوة في ردائها، وهي تقول:

"ماما ... ما الخبر؟"

والتفتت راشيل اليها في الحال وقالت وهي تجذبها تجاه الكرسي من جديد:

"لا شيء يا حبيبتي ... تعالي واجلسي، يا سارة. لذي ما أقوله لك. لا بد أن أشرح لك شيئا."

"ماذا؟ يبدو عليك السخط، هل أنت غاضبة مني؟"

"غاضبة منك! بالطبع لا."

وعانقتها وقالت:

"لست غاضبة ... أنا التي أرجو ألا تغضبي مني."

وعبست سارة وقالت:

"ولماذا أغضب منك؟"

"ماذا تقولين ... إذا اعترفت لك أن جويل هو أبوك فعلا؟"

ولهثت سارة، وقالت:

"ولكن أبي مات!"

"لا ... لا ... هو لم يمت ... إنه حي ..."

"جويل؟"

وأومأت راشيل بالموافقة، وانفرجت شفتا سارة في دهشة، وقالت:

"لا أكاد أصدق! هو أبي حقا؟ ولكن كيف؟ ولماذا؟ ولماذا لا تعيشين معه، إذن؟"

"إنها قصة طويلة، يا سارة! ولكنها ببساطة أن ماما وبابا وقع بينهما خلاف كبير وانفصلا. وأنت عشت معي. أما جويل فعاش في لندن..."

"ولكن، ألم يكن يحضر لزيارتك؟"

وكزت راشيل شفتها، فقد كان السؤال يبدو أكثر صعوبة مما ظنت، وقالت:

"لم يكن يستطيع ذلك، بل لم يكن يعرف شيئا عنك."

"كيف؟"

"أنت تعرفين من أين يأتي الأطفال؟ أليس كذلك يا سارة؟ رأيت النساء في القرية عندما كن ينتظرن أطفالا."

"نعم... إن نمو الاطفال يحدث في بطون الأمهات."

"نعم... حسنا ... وأنا لم أكن أعلم أنك في بطني الا بعد... بعد أن انفصلنا أنا وأبوك..."

وأشرق وجه سارة، وقالت:

"إذن لم يكن يعلم شيئا عني؟ حتى تقابلنا في الفترة الاخيرة..."

وبدت على وجه سارة ابتسامة، وقالت بارتياح كبير:

"والآن يعرف ذلك، ولهذا يريد أن يجعل مني فتاته الصغيرة."

"حسنا ... نعم!"

ورفعت سارة كتفيها بنشوة كبيرة. وقالت في صوت فيه شيء من الاحترام:

"أوه! يا له من شيء عظيم ... وإذن نستطيع أن نذهب لنعيش في ذلك البيت الجميل الذي يطل على مدينة لندن من جميع الجهات ... هل تعرفين أن لديه غرفة كبيرة معظم جدرانها من الزجاج ... ويقوم فيها برسم اللوحات."

"يمكنك أن تذهبي لتعيشي معه إذا شئت يا حبيبتي ... إنه يريدك. ولكنني لن أعيش معكما هناك."

"ولم لا؟"

"من الصعب أن تفهمي ... ولكن حسنا. فأنا وجويل ... لا نتفاهم سويا، وكذلك فإن لديه اريكا ..."

"أوه! تلك المرأة، أنا لا أريد أن أعيش معها."

وردت راشيل في ثبات:

"سوف تعيشين مع جويل، وسوف تكونين فتاته الصغيرة، كما قلت. ألا تحبين ذلك؟"

"بدونك؟ أنا لا أريد أن أتركك."

وتنهدت راشيل:

"لا داعي لأن تتخذي القرار الآن."

وحبست الدموع الساخنة التي كانت تشتعل في عينيها، عندما لاحت لها فكرة، وقالت:

"وكيف حضرت الى هنا ... إذن؟"

وجذبت سارة كتفيها ، وقالت:
"أحضرني الدكتور لوريمر".
وزفرت وقالت:
"إنه يريد أن يراك أيضا".
"حقا؟"
مدت راشيل يدها الى شعرها ، وقالت:
"أعتقد أنه من الافضل أن تطلبي اليه الدخول".
ولمست سارة شعر أمها قبل أن تنزل من فوق ركبتها وقالت:
"شعرك قد أصبح مختلفا ، لم يعد ناعما كما كان. أنا لا أحب هكذا".
واصطنعت راشيل ابتسامة باهتة، وقالت:
"ولا أنا ... إنه شعر مستعار ... كان عليهم أن يحلقوا شعر ماما لاجراء العملية".
"تقصدين ... أنك صلعاء ...".
كانت راشيل تود ألا تسمع كلمة بهذه القسوة وأومأت تقول
"يمكنك أن تقولي ذلك".
"هل يمكنني أن أرى؟"
"ليس الآن، اذهبي وقولي للدكتور لوريمر إنني أحب أن أراه الآن".
وأخذت الراهبة توماس سارة لتشرب عصير البرتقال بينما كان الجراح يتحدث الى راشيل عن الآثار التي يمكن أن تتب العملية، وشرح لها نوع العلاج اللازم، وتأكد من أنها فهمت تماما ، وواصل الحديث معها ، يقول:
"كانت سارة سعيدة الحظ للغاية، كما تعرفين، يا سيد غيلمور ، لقد كانت فكرة استزراع كلية شخص راشد تتطل قدرا كبيرا من العلاج، أما الآن فليس هناك ما يمنع علو الاطلاق أن تحيا سارة حياة عادية تماما".
"كان السيد كينغدوم ... جويل كينغدوم .. يقول إن العقاقير المثبطة لأجهزة طرد الكلية المأخوذة من جسم شخص راشد يمكن أن تؤثر على النمو الجسمي لسارة".
"أعتقد أنه على صواب... وما زالت الأساليب الطبية المستخدمة في هذا الميدان محدودة نوعا . ولكنها تتحسن.. وعلي أن أوضح أن عملية استزراع الكلية في الاطفال ما

زالت في مرحلة المهد ، ومع ذلك فانها تبدو مجالا مثيرا".
وسكت لحظة ثم قال:
"كانت سارة تتقبل حياتها معنا ، على ما أعتقد. رغم أننا جعلناها تقيم فترة أطول بقليل من اللازم بعد الحادث الذي وقع لك حتى نتأكد من أن كل شيء سوف يسير فيما بعد ذلك على ما يرام".
"الحقيقة إنني مدينة لك بالشكر والتقدير".
وابتسم الدكتور لوريمر وهو يقول:
"لا تذكري ذلك ... سارة طفلة فاتنة".
ونظر الى وجنتي راشيل الشاحبتين، وقال:
"أعتقد أن هذه الزيارة طالت أكثر من اللازم. وهي الزيارة الأولى، ويبدو أنك متوترة بعض الشيء يا سيدة غيلمور! ولكن صدقيني، ليس هناك ما يقلقك، وجاء الوقت لكي تقولين "وداعا" لسارة".
ولكن ذلك كان موقفا مؤلما ، وأحست الصغيرة بالقلق الذي كان يعتورها ، وقالت وهي تهمس في شيء من الارتجاف:
"لا تقلقي يا ماما! لن أتركك ..".
كانت راشيل ترقد في تلك الليلة وحيدة في غرفتها... وساعد ذلك على إذكاء الوساوس، وفكرت اذا هي لم تتزوج جيمس كينغدوم فلن تكون قادرة بحال على أن تقدم لسارة حياة تماثل ما يستطيع جويل أن يوفره لها . ولكن، هل يكفي الحب لتعويض سارة عن ذلك؟ وبصفة خاصة أن جويل كان سيقدم لها الحب أيضا؟
ومع بزوغ شمس الصباح، وصلت الى القرار ، كانت متعبة ولكنها كانت على شيء من العزم والتصميم، اقتنعت بأن وجودها بالقرب من سارة يمزق عاطفة الصغيرة. فلا يمكن لها بل لن تستطيع أن تختار جويل... ووجدت أنه من الأنسب أن تختفي من الساحة وتتيح لجويل الفرصة مع الطفلة لكي يعوض عن السنين التي عاشتها مع أمها فقط... وربما تم اللقاء بينهم ذات يوم. وعندئذ تكون سارة قد كبرت فتقرر لنفسها.
وكادت تجهش بالبكاء عندما تخيلت أن شخصا آخر يعنى بشؤون سارة، يبدل لها ملابسها، وينظم شعرها بالفرشاة، ويعاونها على النوم، ويستمتع بالخصوصيات الدقيقة التي كانت تستمتع بها هي من قبل. وصممت على أن تنفذ

قرارها مدفوعة بنوع من الالتزام الخلقي، سوف تنسى سارة التي ستندمج في حياتها بسرعة كما يفعل سائر الاطفال. وسوف يكون جويل معها ليعاونها، وليسري عنها، وليصحبها معه أينما ذهب. سوف تنسى خبراتها المؤلمة في الماضي وسوف تستمتع بمستقبل مشرق وضاء!

١١ - الفرار المحال

لا يزال هناك حاجز آخر ينبغي أن نتخطاه، ذلك الحاجز هو جيمس كنغدوم .. وكانت راشيل تعلم أن عليها أن تواجهه، وكان من حقه أن يعرف خططها للمستقبل. وعندما تستطيع أن تغادر المستشفى فسيكون عليها أن تتخذ الترتيبات اللازمة لكي تنتقل الى مكان آخر غير لندن.

ومضى يومان آخران قبل أن يظهر جيمس. وجاءت سارة لتراها من جديد، وكانت تصحبها في هذه المرة احدى الممرضات الشابات. وأحست راشيل بالارتياح عندما رأتها في حالة صحية طيبة. ولم تكن تكف عن الحديث حول ... كيف أصبح جويل أباها ... وعندما حان وقت الانصراف كانت أعصاب راشيل قد صارت مشدودة تماما.

وفي الصباح التالي أخبرتها الراهبة توماس أن جيمس كنغدوم جاء ليزورها. وكانت راشيل نهضت من الفراش. وعندما دخل جيمس أجفل لرؤيتها، وقال:

"سوف يسعدك أن تعلمي أنني اتخذت كل الترتيبات ... وسوف نتزوج خلال يومين من الآن."

وعندئذ تحدثت راشيل:

"أوه! لا، لن نفعل ذلك، يؤسفني أن الموقف تغير، يا جيمس."

وحملق فيها جيمس:

"ماذا تقولين؟ ماذا قال لك جويل؟"

"لم يخبرني بشيء."

وتجعدت شفتاها:

"لماذا فعلت ذلك يا جيمس؟ كيف خطر لك أنه بإمكانك أن تمضي في هذا الأمر الى آخره بدون أن تفكر في عواقبه؟"

وكان وجه جيمس يعكس الذعر الذي أصابه، وتحدث في صخب وعنف:

"أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدثين؟"

"أوه ... نعم ... إنك لم تعط سارة إحدى كليتيك، بل كنت في ألمانيا عندما أجريت لها عملية استزراع الكلية، والذي تدين له سارة بشفائها هو طفل مسكين توفي ..."

وأحكم جيمس قبضة يده:

"لم أقل أنني شاركت في عملية نقل الكلية ... هل قلت لك ذلك؟"

"ولكنك لم تقل إنك لم تشارك، ولا تنسى أن جويل لا يزال يطالب بتبني سارة."

"أعرف ذلك."

"وسوف أسمح له أن يفعل. لقد وقفت في طريقه بما فيه الكفاية يا جيمس، بدون جدوى!"

"راشيل! إنك لا تعرفين ما تقولين!"

"بل أعرف. إنني لا أستطيع أن أحرمه من ابنته اذا كان حقا يريدها ..."

"راشيل، إن هذا جنون!"

"منذ جاءت سارة لتزورني، يا جيمس ..."

"سارة! هل جاءت لتزورك؟ (وأحس بأنه يترنح) ولكن كيف؟ إن جويل في فرنسا! كيف؟ كيف استطاعت إذن؟"

"لقد أحضرها السيد لوريمر في أول مرة."

"وإذن هي التي .."

"نعم .. كان ينبغي أن تدرك ذلك ... سارة تعرف جيدا كل ما يدور حولها ..."

وصار جيمس يذرع الحجرة بشيء من القلق وقال:

"لا أستطيع أن أصدق يا راشيل! هل فكرت فيما يمكن أن يحدث."

"جويل يريد الطفلة، ويريد أن يتبناها، ولكن أعتقد أنه يدرك أنها تشبهني الى حد كبير بحيث لا يمكن أن يستعديها على أمها .."

وهز جيمس رأسه، وقال:

"سوف تندمين على ذلك .."

وطأطأت راشيل رأسها، وقالت:

"من المحتمل يا جيمس. فذلك لم يكن قرارا سهلا! وقد يعني أنني أتركك ...ولكنك تركتني أيضا عندما حاولت أن تخفي عني الحقيقة، زواجي بك قد ينفي أي حق قد يطالب به

جويل... ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك! لا أستطيع!"

"سوف يذهب بها بعيدا!"

"قد يحدث ذلك بالفعل."

"اشترى بيتا في فرنسا، وينوي أن يعيش هناك... وسوف يصفي عمله المربح هنا في لندن."

وصاحت:

"لا علاقة لي بهذا .. وأتمنى أن يعيش في سعادة كاملة."

وحدق جيمس فيها بوهن، وقال:

"يبدو أنك عقدت العزم بالفعل على ذلك."

"نعم.."

"لعنة الله .."

قالها جيمس واستدار صوب الباب، وخرج من الحجرة. وغاصت في كرسيها تلتمس فيه الهدوء. وكان كل ما بقي هو أن تتحسن صحتها بدرجة تمكنها من ترك المستشفى لتحزم متاعها وترحل. ولم تكن تنوي أن تخبر سارة برحيلها، وكان ذلك في رأيها السبيل الأفضل، لأنها لم تكن قادرة على مواجهة مشهد الوداع الذي ربما مزقها. وقررت أن تترك خطابا لجويل يستطيع من خلاله أن يشرح الموقف لابنته، ابنته وليست ابنتها منذ ذلك الوقت فصاعدا.

خرجت راشيل من المستشفى بعد ذلك بثلاثة أيام دون الحصول على موافقة الدكتور فريزر، ورغم المعارضة الجدية من الراهبة توماس التي قالت:

"لقد أفلتت من الموت بمعجزة يا سيدة غيلمور! ألا ترين من المخاطرة بصحتك الآن شيئا من التهور."

والتفتت اليها راشيل، وهي تلبس سترتها، وقالت:

"أشكر اهتمامك، ولكن لا بد أن أخرج."

"وماذا عن سارة؟ هل تعتقدين أن المخاطرة بصحتك شيء في صالحها؟"

وزمت راشيل شفتيها لتمنعهما من الارتعاش، وقالت:

"سارة... أوه... سوف تكون بخير... وسوف تعيش مع أبيها."

وبدا على الراهبة توماس شيء من عدم الارتياح، وقالت:

"سامحيني، يا سيدة غيلمور، ولكن زوجك لم يحضر بتاتا ليعودك خلال المرض."

"ليس لي زوج... كان مالي هو ابنة واحدة، وكثير من الذكريات المؤلمة...."

وترددت بعض الشيء، وقالت:

"والد سارة هو جويل كينغدوم ... والآن هل تفهمين؟"

كانت الشقة باردة وموحشة عند عودتها، ولكنها أشعلت المدفأة الكهربائية حال عودتها، وفتحت علبة حليب، وأعدت لنفسها فنجانا من الشاي، كانت تنوي أن تقيم في الشقة ليلة واحدة، تقوم فيها بكتابة رسالتها الى جويل. وفي اليوم التالي أن تسحب نقودها من المصرف لتحجز تذكرة سفر الى مدينة أخرى.

وأحست بالانهاك بعد ما بذلته من جهد في صنع الشاي، واضطرت أن تجلس لتستريح قبل أن تشرع في حزم متاعها. وفكرت أنه سيكون عليها أن تحجز غرفة في أحد الفنادق حتى تستعيد صحتها.

وعندما دخلت مخدع سارة أخذت تتلفت حولها وقد استولى عليها يأس غامر، كان كل مكان في الغرفة يذكرها بها. وأدركت أنها لن تكون قادرة على أن تصنع من حياتها شيئا على الاطلاق اذا ما استسلمت باستمرار للعواطف. واستراحت في فترة ما بعد الظهر، وعندما حل المساء أحست بأنها أصبحت قادرة على حزم احدى الحقائب، وفتحت أبواب خزانة الملابس، وصارت تتفرس في صنوف الثياب التي دفع ثمنها جيمس، لم تكن تريد أيا منها. وكانت قطع الثياب التي قررت الاحتفاظ بها هي ملابسها الأصلية. وكانت نزوة سخيفة حقا أن تلبس الملابس التي كانت ترتديها آخر مرة رآها جويل.

كانت في غرفة النوم تطوي السترات وتضعها في الحقيبة عندما انفتح الباب الخارجي للشقة، وسمعت شخصا يدخل، واضطربت دقات قلبها لحظة، وساورتها كل المخاوف التي كانت تتضمنها قصص جيمس عن السكن في وحدة في مثل تلك الشقة، ولكن عاودها التعقل عندئذ، كان هناك شخصان فقط بخلافها معهما مفتاح للشقة: جيمس، والسيدة تالبوت.

ونشقت نفسا عميقا، واتجهت الى باب غرفة النوم بينما دخل الزائر الغريب الى غرفة الاستقبال ليجدها، لم يكن جيمس ولم تكن السيدة تالبوت. كان جويل هو الذي

يقف أمامها. ورفعت يدا مرتعدة الى رأسها العاري وأحست بنعومة الشعر الجديد النامي، وخشيت أن يرى الرجل الذي كان يحدق بمرارة في شخصها منظرا مزعجا للغاية. واستطاعت في النهاية أن تجد القدرة على أن تنطق بالكلمات:

"جويل، ما الذي جاء بك الى هنا؟"

ورد جويل في نبرات ثائرة:

"راشيل! لماذا بالله تركت المستشفى، يا راشيل؟"

وامتد بصره الى ما وراءها، الى حقيبة الملابس المفتوحة على السرير، وقال:

"ما الذي تفعلينه، عليك اللعنة؟"

كانت راشيل تود لو استطاعت أن تغطي رأسها بيديها، وكانت حساسة جدا لمنظرها السيء، واستدارت تبحث عن الشعر المستعار الذي كانت قد ألقت به أمام المرآة .. ولكن جويل أمسك بكتفيها من الخلف، وأدارها نحوه لتواجهه، وأمسك بالشعر المستعار من يدها، وألقى به جانبا، وقال:

"اجيبيني، يا راشيل! أريد أن أعرف."

وأجبرت راشيل نفسها على أن تقول:

"دعني ألبس الشعر المستعار أولا!"

واكتفى بأن هزها برقة، ودمدم بوحشية:

"أنا لا يهمني الشعر المستعار، ولا يهمني مظهرك يا راشيل! أخبريني ما الذي تنوين فعله؟"

وطأطأت رأسها، وهي لا تدري أنها جعلت خصل الشعر الناعم على مؤخرة رقبتها تتبدى لناظريه، وقالت:

"كنت... كنت أنوي الرحيل... أوه... ليس مع سارة و... كنت أنوي أن... أكتب اليك... ولكن يغني عن ذلك أن أخبرك الآن... لا مانع عندي من أن تبقى سارة معك."

"ماذا؟"

"بوسعها ذلك، وهي تريده. لقد قالت إنها لا تريد أن تتركني، ولكن أعرف.."

وعلق بحدة:

"تعرفين؟ أنت لا تعرفين شيئا."

وأطلقها فجأة لدرجة أنها كادت أن تسقط على الأرض، ولكنه أمسك بها ثانية بصرخة ألم مكبوتة. وجذبها وقال:

"أوه... راشيل! لا تذهبي... لا تتركيني!"

وعندئذ جذبت راشيل نفسها بعيدا عنه، وأخذت تحدق النظر فيه، وقالت:

"جويل ... انتهينا من كل هذا ..."

"لا ... لم ننته بعد."

والتقت عيناه القاتمتان بعينيها. والتفتت راشيل بعيدا، وقد أصبحت عاجزة عن النظر اليه دون أن تلقي بنفسها بين ذراعيه:

"لقد انتهينا ... قلت لك إن بوسعك أن تأخذ سارة ... وعندما تكبر بالدرجة التي تستطيع فيها أن تقرر لنفسها ... فسوف أعود."

ودمدم وهو يمسك بكتفيها، ويجذب ظهرها نحوه:

"لن أسمح لك بأن تفعلي ذلك! أوه! يا راشيل! أنصتي الي.. أنصتي الي."

وصاحت في شيء من اليأس وهي ترفعه، وتحس باستجابته الفورية لاقترابها منه:

"قلت انك تريد أن تتبنى سارة."

"أعرف أنني قلت ذلك ... أريد أن أتبنى سارة بعد أن نتزوج فورا ..."

لم تكن راشيل قادرة على أن تصدق ما سمعته، وقالت:

"ماذا؟ جويل؟"

وقال بصوت أبح:

"أرجوك بالله ألا تتحركي. فقط ابقي حيث أنت يا راشيل! إنك لا تعرفين كم يبدو هذا جميلا!"

"جويل! أنت قلت عندما نتزوج؟"

"أعرف أنني قلت ذلك."

وحاولت راشيل ألا يبدو عليها الاضطراب بدرجة كبيرة، وسألته:

"من أجل ... من أجل سارة!"

ورد بصوت أجش، وهو يحتضن وجهها بين يديه:

"لا! ليس من أجل سارة يا إلهي ... يا راشيل ... أنت بحاجة الى الاقناع، هل أنا بحاجة الى أن أركع على ركبتي وأطلب يدك."

وسألت:

"هل تقبل أن تفعل ذلك؟"

"لو طلبت ذلك لفعلته.. لا بد أن تشعري بشعوري نحوك.. اذ عبرت عنه في مرات عديدة."

وحاولت راشيل أن تقتنع بما سمعت، وسألت:

"ولكن، ولكن ... اريكا؟"

"أنا لا أحب اريكا ... ولم أحبها قط... ولقد قلت لك ذلك... إنني أحبك! ولقد أحببتك دائما ... وعندما افتقدتك، تعذبت كثيرا ... صدقيني!"

"ولكنني أظن أن والدك ... قال ..."

"إن لوالدي حسابا كبيرا."

"ولكن اريكا.."

"أعرف، أعرف أن اريكا جاءت لتزورك، ولكنني لم أكن أعلم بتلك الزيارة وكيف كان بامكاني أن أعلم؟ وقد كنت في فرنسا، ثم رجعت، ورفضت أنت مقابلتي!"

"كان بإمكانك أن تصمم!"

"لا يستطيع الانسان أن يصمم مع شخص مريض، يا راشيل! ولقد كنت في حالة سيئة، كنت مهيئا للانتظار، ولم أكن أعلم أنك تقدمين على عمل جنوني مثل ترك المستشفى."

وارتعد وقال:

"انني لا أستطيع أن أتصور ذلك، لو أنني لم أعد، وأتجه الى المستشفى لكنت اختفيت ثانية!"

ونطقت وهي تضع يدها على صدره:

"كنت أظن أن ذلك ما تريده أنت.."

"كيف؟ بعد ما عبرت لك عن مشاعري بكل الطرق."

"كنت أعلم ... أنك تريدني. ولكن من قبل كنت تريدني أيضا!"

"إنني لم أكف ابدا عن أن أريدك، عليك أن تصدقيني! لو أنك رجعت، لعرفت."

"ولكنك لم تكن تريد الأطفال أبدا، يا جويل! لقد قلت ذلك."

وتنهد وقال:

"نعم، ربما أكون بحاجة الى أن أوضح لك شيئا، كان ينبغي لأبي أن يخبرك به، لقد ماتت أمي بمرض الكلية."

"هل تعني؟"

"نعم أعني ... أنه اذا كان مرض سارة يرجع بشكل ما الى الوراثة، فان ذلك يعود الى أسرتي أنا وليس الى أسرتك."

"أفهم ٠٠٠"

وأغلق جويل عينيه لحظة، ثم فتحهما من جديد، وقال:

"أعرف أن هذا ليس عذرا بالطبع عن الطريقة التي تصرفت بها. ولكن أبي كان قد تغير بعد وفاة أمي، كان كل شخص يقول ذلك، كان يحبها بطريقة جنونية، وأخذت على نفسي عهدا ألا أحب امرأة بالطريقة نفسها. وكنت قد قررت أنه اذا حدث ووقعت في حب فتاة، فانني لن أتزوج بأية حال، بل لن يكون لي أطفال منها حتى لا يهدموا العلاقة بيننا."

"أوه، جويل!"

"إنني لا أشعر بالرضى عن نفسي عندما أفكر في المعاناة التي مررت بها وحدك. كان من الواجب علي أن أمنع حدوث شيء مثل هذا ٠٠٠ ولكن معك ٠٠٠"

ونظر الى فمها في شيء من الاثارة:

"أنت تعرفين كيف بلغت العلاقة بيننا، ولم أكن أريد أن أفسدها، ولكنني فعلت."

ونطقت:

"أوه! جويل! أحبك!"

وعندما رفع رأسه في النهاية، كان يتنفس بطريقة مضطربة، وكانت عيناه تبدوان كما لو كانتا قد كسيتا بطبقة رقيقة لامعة كما رأتهما من قبل:

"أوه! يا إلهي، يا راشيل! أرجوك ألا تتركيني أبدا، لهذا أردت سارة، وليسامحني الله، لأنها ابنتك كما هي ابنتي. أحبها، ولكن فقط لانها تشبهك كثيرا، قد يقول البعض إنها تشبهني، ولكنها تشبهك تماما."

كانت سرعة التأثر التي يتحدث بها مثيرة للغاية، وحاولت راشيل بجهد كبير أن تتحدث عن أشياء تنتمي بطريقة أكثر الى الأمور الواقعية:

"إنك لم تحضر لتزورني بعد العملية، لماذا؟ لماذا أجلت زيارتك لي الى ما بعد زيارة اريكا؟"

"سافرت الى فرنسا لأشتري منزلا، قصرا صغيرا في الواقع. هل تشاركيتي إياه؟ معي، ومع ابنتي؟"

ومدت أصابعها تتحسس بها ذقنه، وقالت:

"ماذا كنت ستفعل لو جئت الى هنا بعد رجوعك، ولم تجدني؟"

"كنت سأخرج في هدوء عن صوابي."

قالها بشيء من الثبات.

"لا أعتقد ذلك ٠٠٠"

"لا؟ أعتقد أنني كنت سأفعل ٠٠٠ بل إن أبي كان يظن ذلك أيضا ٠٠"

"ماذا تعني؟"

"لقد اتصل بي هاتفيا هذا الصباح، وأخبرني أنه تلقى مكالمة هاتفية من المستشفى تخطره بأنك كنت تنوين ترك المستشفى اليوم ٠٠٠ وارتأى أبي أنني ينبغي أن أعلم بذلك."

"أوه، جويل!"

"من حقك أن تقوليها مرات ٠٠٠ ومرات ٠٠٠"

"وإذن فقد أثبت أبوك أنه ليس شريرا الى ذلك الحد."

وتصلب فم جويل بعض الشيء، وقال:

"لست واثقا من ذلك. يعرف ما يعمله طوال تلك الفترة، وهذه طريقته التي عاملني بها باستمرار ٠٠٠ لو أنك فقط لجأت الي أنا منذ البداية ٠٠"

"وكيف كنت أستطيع ذلك؟"

وأومأ جويل برأسه، وقال:

"أعرف! ما الاسم الذي كنت تطلقينه علي؟ أناني وكاذب! يا إلهي لقد دفعت ثمن ذلك. أما بالنسبة الى أبي فإنني من باب حسن الظن أقول إنه وجد في مرض سارة وسيلة يمحو بها شعوره بالذنب نحو وفاة أمي. لقد كان يريد أن يساعدها حقا، وإنني متأكد من ذلك."

"والآن؟"

"والآن نتزوج بأسرع ما يمكن."

ولمست رأسها بيدها، وقالت:

"أو لا يضايقك هذا؟"

وابتسم جويل ابتسامة دافئة فيها شيء من التسامح، وقال:

"لماذا أتضايق، إنك تبدين وكأنك طفلة رضيعة!"

وتمتمت راشيل بسخرية:

"طفلة رضيعة نمت أكثر من اللازم!"

ورد جويل:

"ليس في نظري."

وجذبها نحوه، وقبل فروة رأسها الناعمة، وقال:

"سوف ينمو، ومع هذا فانني احبك على أية صورة، يا راشيل ... أنا لا انكر أنني احبك عندما تكونين عروسا جميلة في شعرك الناعم الحريري. ليس المظهر هو ما يجتذبني لأني أحب شخصك أنت: أم طفلتي، ومغزى حياتي."

تمتمت قائلة:

"سوف تبتهج سارة عندما تجد أن لها اما وأبا."

وأضاف جويل في رقة:

"وبيتا كذلك. والآن هل تريحين حقيبة الملابس هذه؟ أم أريحها أنا؟ إنني منهك تماما، ولم أنم منذ ثلاثة أيام، إنك لا تعرفين مدى المشقة التي سببتها لي، ولا الليالي التي سهرتها."

وسألته:

"هل أستحق كل ذلك؟"

وابتسم ابتسامة عريضة، وقال في استسلام:

"بدون أدنى شك."

فراشة المحبة